

الحلية للباحث عن الحق

عشر وقفات مع النفس والهوى

للإمام المحقق عبد الرحمن المعلمي



أفردها واستلها وشرحها

د. محمد بن سرار اليامي



للإمام المحقق عبد الرحمن المعلمي



الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤ م



الكويت- الجهراء- القيصرية القديمة

كابيتول مول- السرداب محل ٢٤

الموقع الإلكتروني: www .daradahriah .com

البريدالإلكتروني: daradahriah@gmail .com

هاتف: +965 99627333 - +965 51155398

الموزعون المعتمدون

الكويت: دار أندلسية للنشر والتوزيع - (+965) 94747176 - darandalusia@hotmail.com

الكويت: مركز طروس للنشر والتوزيع - (+965) 90090146 - torousq8@gmail.com

المدينة المنورة: مكتبة الميمنة المدنية - (+966) 558343947 - daralmimna@gmail.com

المدينة المنورة: مكتبة زاد الراوي - (+966) 0542658208 - al.raawe.zd@gmail.com

جدة: مكتبة الشنقيطي للنشر والتوزيع - (+966) 504395716 - hassan_hyge@hotmail.com

مكة المكرمة: المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع - (+966) 125273037 - alasadi2000@hotmail.com

اسطنبول (منطقة الفاتح): دار الأصالة - (+90) 2125118547 - asalet@asaletyayinlari.com.tr

القاهرة: دار الأنصار للنشر والتوزيع - (+20) 0225121020 - daralansar419@gmail.com

الجمهورية اليمنية: مكتبة بنيان - (+967) 777627633 - bnyanmaktbt@gmail.com

الحلية للباحث عن الحق

عشر وقفات مع النفس والهوى

للإمام المحقق عبد الرحمن المعلمي

أفردها واستلّها وشرحها

د. محمد بن سرار اليامي

دار الظاهرية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحیم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم أما بعد..

أرفع لكم هذا التوشيح اللطيف على عُلالة علم، وغُلالة فهم ساقني لها قدر الله، ودفعني لها حب المعرفة ومتابعة مسالك العلماء في تدبيرها، وحسن المأخذ فيها، فوقفت مشدوهًا لروعة ما رأيت من حسن المأخذ، وجمال الاستنطاق للنصوص، ودقة التعبير عن كوامن النفس، وبيان أبواب عللها، للتمكن من غلقها.. ورعايتها بروح الوحي الشريف، وأنا معني بمثل هذه اللطائف، لحاجتي لها، في تربية روحي خلال رحلة البحث عن الحق، في حكم من أحكام الله جل وعز...

وقبل هذا وبعده ..

أقول للشادي للمعرفة، والطالب للعلم: دونك ثمرة معانة..

فيا أُخَيَّ، كن حذرًا من الجمود في النقل للنصوص، بلا فهم ولا تطبيق، ولا حسن تنزيل، وتنبه من جنوح المتكلمين بغير علم، يدفعهم الذوق، والإلف والعادة.

وكن فطنًا من برود المتزهدين، المدعين، التاركين دين الله تورعًا، زعموا، وإياك وشَرَه أهل الهوى والشهوة، فإن للعلم شره، وللنفس هوى، وللروح صبوة.

وكن في يقظة من الوقوف على صورة العلم من غير عمل، فهو وربي الخذلان المعجل، والشاهد المؤجل، ثم احذر عجلة المتعبدين بغير علم، وعملهم بما تستحسنه ظنونهم، وتدعوهم أنفسهم له، فهو مجنى الابتداع.

فإن ضبطت هذه المداخل، يا موفق، فاعلم أنه قد سُدّت عن روحك سراديب الفتن، وفُتحت لك أبواب العلم، وهُديت للعمل به، ولرفع الجهل عن نفسك وعن كل محتاج، وهي الثمرة.

بقي أن أقول:

فالحمد لله الذي أوقعني على هذه الرسالة المخبوءة، والدرة المصونة، لهذا العلم المحقق، الباحث عن الحق بدليله، وقد اغتبطت بها لنفاستها، ومسيس الحاجة لها، ففرقتها على مجالس متواترة، نقرأها ونعلق عليها بما فتح الله، ثم وشحتها بنقول عن جهابذة العلم، تؤيد ما وشح...

وعزوت مراجعتها لعالم محب للعلم، وعزوت تخريجها لمحب متقن، وراجعتها على عجالة ...

فدونكها بغير كد ولا مد، هانية، دانية، فخذها في طريقك للبحث عن الحق مشاعلًا تهتدي بها، وزادًا يقيم أودك ..

أخذ الله بقلبي وقلوبكم لحبه، والسعي إلى محابه، على ما يحب، وبما يحب ...

وإني أشكر كل من كان له يد في الدلالة أو المراجعة، أو الطباعة، أو التصويب، لهذه الفوائد الفرائد... جعلنا الله مع الإمام، وشيخ المحققين

عبدالرحمن المعلمي ﵀ ممن يغنمون الأجر والفضل .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتبه حامدًا مصليًا

في رياض نجد العذية

د.محمد بن سرّار اليامي

١ التفكير في شرف الحق وضَعَةِ الباطل

النص

يفكِّر في شرف الحق وضَعَةِ الباطل.

وذلك بأن يفكر في عظمة الله ﷻ وأنه رب العالمين، وأنه سبحانه يحب الحق ويكره الباطل، وأن من اتبع الحق استحق رضوان رب العالمين.

فكان سبحانه وليه في الدنيا والآخرة، بأن يختار له كل ما يعلمه خيرًا له وأفضل وأنفع وأكمل وأشرف وأرفع، حتى يتوفاه راضيا مرضياً، فيرفعه إليه ويقربه لديه، ويُحِلَّه في جواره مكرما منعما في النعيم المقيم، والشرف الخالد، الذي لا تبلغ الأوهام عظمته.

وأن من أخلد إلى الباطل استحق سخط رب العالمين وغضبه وعقابه. فإن آتاه شيئًا من نعيم الدنيا، فإنما ذلك لهوانه عليه، ليزيده بعدا عنه، وليضاعف له عذاب الآخرة الأليم الخالد الذي لا تبلغ الأوهام شدته.

التعليق

❑ شرف الحق وضَعَةِ الباطل:

الله تعالى هو الحق، ومن أسمائه: الحق، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج:٦]، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النُّور:٢٥].

وقد كان النبي ﷺ يثني على ربه ﷻ فيقول: «أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق» [رواه البخاري ومسلم].

وقال الزجاجي رحمه الله: الله ﷻ حق، وكل معبود دونه باطل، والحق: نقيض الباطل.

والحق اصطلاحا هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا يتعدد، ويقابله الباطل الزائل الذي لا يستحق البقاء؛ قال أكثم بن صيفي: «الحَقُّ أَبْلَجُ والبَاطِل لجلج[1]، أبلج: أي ظهر، ووضح[2]، وهو المضيء المستقيم، ولجلج: المختلط الَّذِي لَيْسَ بمستقيم[3].

وقال الجرجاني رحمه الله: «الباطل ما خالف الشرع، ولم يتعلق به النفوذ والاعتداد بالوصول إلى المقصود، ولم يحصل به المقصود مما لا يعتد به

(١) مختار الصحاح، ص٢٧٩.

(٢) انظر: لسان العرب، ٢/ ٢١٦.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، أبو منصور الهروي، ١٠/ ٢٦٥.

في الأمور الفاسدة، ويكون في العبادات، وفي المعاملات، والعقود، وما يتعلق بذلك»[١].

والتفكير في شرف الحق وضعة الباطل ضروري لفهم المعاني الحقيقية للحياة والتمييز بين ما يستحق السعي وراءه وما يجب الابتعاد عنه، الحق يرتبط برضوان الله وكرامته، ويقود الإنسان إلى الطمأنينة والسعادة الحقيقية، بينما الباطل يؤدي إلى الهوان والضياع في الدنيا والآخرة. إدراك قيمة الحق يدفع الإنسان للتمسك بما يرضي الله، وتجنب ما يجلب سخطه وعقابه، مما يحقق له حياة طيبة في الدنيا ومقامًا رفيعًا في الآخرة.

قال الله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ﴾، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾. وقال ﷺ: «ألَا لا يَمنَعَنَّ أحَدَكم رَهْبةُ النَّاسِ أنْ يقولَ بحَقٍّ إذا رَآه»[٢].

وقال أحد الشعراء في ذلك:

الحق أبلج، لا تخفى معالمه ... كالشمس تظهر في نور وإبلاج

وقال آخر:

ألم تـــــر أن الحق تلقاه أبلجا ... وأنك تلقى باطل القوم لجلجا

❐ الرب العظيم يحب الحق ويكره الباطل:

من أسماء الله تعالى الحسنى: العظيم؛ فهو الذي خضع كل شيء

(١) التعريفات، الجرجاني، ص ٦١.
(٢) أخرجه أحمد ١٨/ ٥٣، برقم ١١٤٧٤.

لأمره، ودان لحكمه، والكل تحت سلطانه وقهره، وهو ذو العظمة الذي كل شيء دونه، فلا شيء أعظم منه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البَقَرَة:٢٥٥].

قال الإمام أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله: ينبغي لمن عرف حق عظمة الله تعالى ألا يتكلم بكلمة يكرهها الله عز وجل، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله عز وجل؛ إذ هو القائم على كل نفس بما كسبت.

وكذا هو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فمن ربوبيته تعالى أنه المتصرف في الكائنات، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [يُونُس:٣]، وهو سبحانه مدبر الأمور ومصرف الكائنات، وليس معه شريك في ذلك لا ملك ولا نبي ولا جن ولا إنس ولا غير ذلك.

فأهل الحق شعارهم سمعنا وأطعنا وكلامهم ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، فالحق هو: اتباع المنهج الرباني الذي يرشد البشرية إلى حقيقة التصور والاعتقاد والفكر..

❑ الحق وسيلة لرضوان الله وولايته لعبده:

يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: الولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، وعلى هذا تجتمع في المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور،

ونفاق وإيمان[١].

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٤ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٥﴾ [يونس:٦٢-٦٥].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥٧﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقال عز من قائل: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٤].

يقول ابن كثير رحمه الله: كل من كان تقيا كان لله وليا[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعته»[٣].

إن اتباع الحق هو الطريق إلى رضوان الله وولايته لعبده، فعندما يلتزم الإنسان بالحق ويسعى لتحقيقه في أقواله وأفعاله، ينال محبة الله ورضاه، هذا الرضا يتحقق بتوفيق الله لعبده، فيختار له كل ما فيه خير ونفع، وييسر له سبل الطاعة ويبعده عن الفتن.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ٢/ ٥٤٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٠٤؛ وتيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي، ص٣٦٨.
(٣) مجموعة الرسائل والمسائل، ١/ ٥٠.

فالحق ليس مجرد قيمة أخلاقية، بل هو سبيل للنجاة والفوز بالسعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.

❐ مصير من يتبع الباطل:

أهل الباطل هم الذين جحدوا الحق، وكذبوا الرسل والأنبياء؛ كما وصفهم المولى ﷻ بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكۡذِيبٍ﴾ [البُرُوج:١٩]، وعطلوا عقولهم عن التفكير في حقيقة الحق الذي أنكروه، وعن حقيقة المعجزات التي أيد الله بها أنبياءه ورسله، وعن الأدلة العلمية والحجج العقلية التي تقطع الشك حول صدق الرسالات والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم)، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِى ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾ [الأَنْعَام:٣٩]، فهؤلاء هم الكافرون اللذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾ [الرُّوم:١٦].

فمن يتبع الباطل ويبتعد عن الحق يعرض نفسه لسخط الله وعقابه. في الدنيا، قد يبدو أنه يعيش في رفاهية ونعيم ظاهري، لكنه في الحقيقة يعيش في قلق واضطراب داخلي، حيث أن الباطل لا يجلب الطمأنينة أو السعادة الحقيقية. أما في الآخرة، فيلقى جزاءه بالعذاب الأليم الذي لا تخفف شدته ولا ينقطع. هذا المصير هو نتيجة اختياره للباطل وإعراضه عن ذكر الله، وهو تذكير بأن ما قد يُظن أنه مكسب في الدنيا قد يكون سببًا في خسارة أبدية في الآخرة.

٢ التفكير في نسبة نعيم الدنيا وبؤسها إلى رضوان الله وسخطه

النص

- يفكر في نسبة نعيم الدنيا إلى رضوان رب العالمين ونعيم الآخرة، ونسبة بؤس الدنيا إلى سخط رب العالمين وعذاب الآخرة، ويتدبر قول الله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥﴾[الزُّخْرُف:٣١-٣٥].

ويُفهم من ذلك أنه لولا [٢/ ١٩١] أن يكون الناس أمة واحدة لابتلى الله المؤمنين بما لم تجر به العادة من شدة الفقر والضر والخوف والحزن وغير ذلك. وحسبك أن الله ﷻ ابتلى أنبياءه وأصفياءه بأنواع البلاء.

وفي «الصحيحين»[١] من حديث كعب بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمن كمثل الخامة من الزرع تُفَيِّئُهَا الرياح، تضرعها مرةً وتعدلها أخرى حتى يأتي أجله، ومَثَلُ المنافق كمثل الأرزة الـمُجْذِية التي لا يُصيبها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة»، وفي «الصحيحين»[٢] أيضًا نحوه من حديث أبي هريرة.

ومعنى الحديث -والله أعلم- أن هذا من شأن المؤمن والمنافق، فلا يلزم منه أن كل منافق تكون تلك حاله لا يناله ضرر ولا مصيبة إلا القاضية.

والمقصود من الحديث تهذيب المسلمين، فيأنس المؤمن بالمتاعب والمصائب، ويتلقاها بالرضا والصبر والاحتساب، راجيا أن تكون خيرا له عند ربه ﷻ، ولا يتمنى خالصا من قلبه النعم، ولا يحسد أهلها، ولا يسكن إلى السلامة والنعم ولا يركن إليها، بل يتلقاها بخوف وحذر وخشية أن تكون إنما هيئت له لاختلال إيمانه، فترغب نفسه إلى تصريفها في سبيل الله ﷻ، فلا يُخلد إلى الراحة ولا يبخل، ولا يُعجب بما أوتيه ولا يستكبر ولا يغتر.

ولم يتعرض الحديث لحال الكافر، لأن الحجة عليه واضحة على كل حال.

وأخرج الترمذي[٣] وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: سُئل النبي ﷺ: أي الناس أشدّ بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في

(١) البخاري (٥٦٤٣)؛ مسلم (٢٨١٠).
(٢) البخاري (٥٦٤٤)؛ مسلم (٢٨٠٩).
(٣) برقم (٢٤٠٠)؛ الدارمي، ٢/ ٣٢٠؛ ابن ماجه، (٤٠٢٣)؛ ابن حبان، (٢٩٠١)؛ الحاكم، ١/ ٤١.

دينه رقة هون عليه....» الحديث. قال الترمذي: «حسن صحيح».

وقد ابتلى الله تعالى أيوب بما هو مشهور، وابتلى يعقوب بفقد ولديه وشدد أثر ذلك على قلبه، فكان كما قصه الله ﷻ في كتابه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤].

وابتلى محمدا ﷺ بما تراه في أوائل السيرة، فكلفه أن يدعو قومه إلى ترك ما نشأوا عليه تبعا [٢/ ١٩٢] لآبائهم من الشرك والضلال، ويُصارحهم بذلك سرا وجهارًا، ليلا ونهارًا، ويدور عليهم في نواديهم ومجتمعاتهم وقراهم. فاستمر على ذلك نحو ثلاث عشرة سنة، وهم يؤذونه أشد الأذى، مع أنه كان قد عاش قبل ذلك أربعين سنة أو فوقها ولا يعرف أن يؤذى، إذ كان من قبيلة شريفة محترمة موقرة، في بيت شريف محترم موقر، ونشأ على أخلاق كريمة احترمه لأجلها الناس ووقروه، ثم كان مع ذلك على غاية الحياء والغيرة وعزة النفس، ومن كانت هذه حاله يشتد عليه غاية الشدة أن يؤذى، ويشق عليه غاية المشقة الإقدام على ما يعرضه لأن يؤذى، ويتأكد ذلك في جنس ذاك الإيذاء: هذا يسخر منه، وهذا يسبه، وهذا يبصق في وجهه -بأبي هو وأمي-، وهذا يحاول أن يضع رجليه على عنقه إذا سجد لربه، وهذا يضع سَلَى(١) الجزور على ظهره وهو ساجد، وهذا يأخذ بمجامع ثوبه ويخنقه، وهذا ينخس دابته حتى تلقيه، وهذا عمه يتبعه أني ذهب، يؤذيه ويُحذِّر الناس منه ويقول: إنه كذاب، وإنه مجنون، وهؤلاء يُغرون به السفهاء، فيرجمونه حتى تسيل

(١) السَّلَى: غشاء يحيط بجنين البهيمة.

رجلاه دما، وهؤلاء يحصرونه وعشيرته مدة طويلة في شعب ليموتوا جوعًا، وهؤلاء يعذبون من اتبعه بأنواع العذاب، فمنهم من يُضْجِعونه على الرمل في شدة الرمضاء ويمنعونه الماء، ومنهم من ألقوه على النار حتى ما أطفأها إلا وَدَك ظهره، ومنهم امرأة عذبوها لترجع عن دينها، فلما يئسوا منها طعنها أحدهم بالحربة في فرجها، فقتلها، كل ذلك لا لشيء إلا أنه يدعوهم إلى أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، [٢/ ١٩٣] ومن الفساد إلى الصلاح، ومن سخط الله إلى رضوانه، ومن عذابه الخالد إلى نعيمه الدائم. ولم يلتفتوا إلى ذلك مع وضوح الحجة، وإنما كان همهم أنه يدعوهم إلى خلاف هواهم.

ومن وجه آخر ابتلى الله ﷻ نبيه ﷺ بأن قبض أبويه صغيرًا، ثم جده، ثم عمه الذي كان يحامي عنه، ثم امرأته التي كانت تؤنسه، وتخفف عنه، ثم لم يزل البلاء يتعاهده ﷺ، وتفصيل ذلك يطول، وهذا وهو سيد ولد آدم وأحبهم إلى الله ﷻ.

فتدبر هذا كله لتعلم حق العلم أنَّ ما نتنافس فيه ونتهالك عليه من نعيم الدنيا وجاهها ليس هو بشيء في جانب رضوان الله ﷻ والنعيم الدائم في جواره؛ وأن ما نفر منه من بؤس الدنيا ومكارهها ليس هو بشيء في جانب سخط الله ﷻ وغضبه والخلود في عذاب جهنم.

وفي «الصحيح» [١] من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم

---

(١) أخرجه مسلم، (٢٨٠٧).

يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيُصْبَغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط، وهل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

التفكر في زوال النعيم الدنيوي هو الطريق إلى نعيم الآخرة:

تجد ذم الدنيا ومدح نعيم الآخرة، وتفضيل ما عند الله على متاع الدنيا القريب العاجل، في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عِمران:١٩٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه:١٣١]، وقال سبحانه:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عِمران:١٤-١٥].

فعلى المؤمن أن يتأمل دائمًا في حقيقة أن النعيم الدنيوي، مهما كان براقًا ومغريا، لا يقارن برضوان الله ونعيم الآخرة. فالترف والزينة في الدنيا لا يدومان، وهما زائلان حتمًا، بينما النعيم في الآخرة أبدي وخالد. يقول الله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾، وهو تذكير بأن ما يجمعه الناس من أموال ومتاع دنيوي لا يساوي شيئًا أمام رحمة الله وجزائه في الجنة. إن إدراك هذه الحقيقة يدفع المؤمن إلى عدم الانشغال بزخارف الدنيا، بل يجعله يوجه اهتمامه نحو العمل الصالح، متطلعًا إلى

رضا الله ونعيم الآخرة، بعيدًا عن الغرور بالمظاهر الزائلة.

إن نعيم الدنيا لا يقارن بنعيم أعده الله للمؤمنين في الجنة «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، ينادي مناد «إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبئسوا ابدا؛ فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأَعۡرَاف:٤٣]» [رواه مسلم].

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مديرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل». [ذكره البخاري معلقا في كتاب الرقاق من صحيحه].

❑ الابتلاء تمحيص وتمييز:

الابتلاء سنة من السنن الإلهية في الكون واقتضت حكمة الله تعالى أن يبتلي عباده بالخير والشر، تمحيصا لذنوبهم، وتمييزا بين الصادق والكاذب، بعد أن تكرم عليهم بالاختيار، وهداهم النجدين.

أوجد الله الدنيا وقال عنها أنها دار شهوات ومتاع، ودار شرور وغرور، لأنها زودت بكل المغريات لذا تكثر فيها الغفلات ويقل فيها الثبات، فهي مسرح صراع بين الحق والباطل، تتمحص فيه القلوب وتتميز فيه الصفوف،

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عِمْرَان:١٣٩-١٤١].

يقول ابن القيم رحمه الله (يريد تمحيص المؤمنين؛ أي تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا)(١).

ويقول الراغب الأصفهاني رحمه الله: اختبار الله للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم البلاءين(٢).

وذكر القرطبي رحمه الله (أن البلاء يكون حسناً ويكون سيئاً، وأصله المحنة والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره ويبلوه بالبلوى التي يكرهها ليمتحن صبره، فقيل للحسن بلاء، وللسيء بلاء)(٣).

ويوضح هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به، كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم الجوزية، تحقيق محمد سعيد كيلاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ٢/ ١٨٨.
(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ص ٦١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب المصرية، ط٣، ١٣٧١هـ، ١/ ٣٨٧.

كالذهب الإبريز، فذلك الذي نجاه الله تعالى من السيئات، ومنهم من يخرج كالذهب دون ذلك، فذلك الذي يشك بعض الشك ومنهم من يخرج كالذهب الأسود، فذلك الذي قد افتتن»[١].

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: «فاقتضت حكمة الله سبحانه أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته، ومن لا يصلح وليمحص النفوس التي تصلح له، ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذ النفس -في الأصل- جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة»[٢].

❑ ابتلاء الأنبياء ثابت:

الأنبياء أصفياء الله كانوا أكثر الناس ابتلاءً رغم قربهم من الله، مما يوضح أن البلاء ليس دليلاً على غضب الله، بل قد يكون علامة على قوة الإيمان.

فقد ابتلى الله تعالى خير عباده من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم. فهذا نبينا إبراهيم عليه السلام -مثلا- قد ابتلاه الله تعالى بمختلف الصور والأنواع والألوان؛ قال ابن عاشور رحمه الله في تفسير ابتلائه عليه السلام: المقصود من

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ٤/ ٣١٤، وأقره الذهبي على صحته فقال: صحيح. انظر: رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي، ص٥٢.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ٣/ ١٨.

هذا الابتلاء إظهار عزمه، وإثبات علو مرتبته في طاعة ربه؛ فإن الولد عزيز على نفس الوالد والولد الوحيد الذي هو أمل الوالد في مستقبله أشد عزة على نفسه لا محالة، وقد علمت أنه سأل ولدًا ليرثه نسله ولا يرثه مواليه، فبعد أن أقر الله عينه بإجابة سؤله، وترعرع ولده أمره بأن يذبحه فينعدم نسله، ويخيب أمله، ويزول أنسه، ويتولى بيده إعدام أحب النفوس إليه، وذلك أعظم الابتلاء. فقابل أمر ربه بالامتثال وحصلت حكمة الله من ابتلائه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ [الصَّافَّات:١٠٦].

وتعليل هذه السنة في حق الأنبياء عليهم السلام كما قال المناوي: «لتتضاعف أجورهم وتتكامل فضائلهم، ويظهر للناس صبرهم ورضاهم، فيقتدى بهم»[(١)].

❑ مصير أهل الدنيا والآخرة:

جاء القرآن الكريم مؤكداً هذه الحقيقة، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النِّسَاء:٧٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العَنكَبُوت:٦٤].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحَدِيد:٢٠] وغيرها من

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، ١/ ٥١٨.

الآيات.

وجاءت السنة النبوية مؤكدة هذا المعنى أيضا فقد قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأصلح الأنصار والمهاجرة» [١] ومنها قوله أيضا: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[٢] وذكر في حديث آخر «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل لحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[٣].

والحاصل أن «الدنيا كالماء الذي يعلق في الإصبع من البحر والآخرة كسائر البحر» ولا يتعلق بها إلا من لا عقل له وقد قال النبي ﷺ «الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له»[٤].

وهذه الحقيقة عاشها الصحابة رضي الله عنهم وعرفوها وكذا من سار على نهجهم من السلف الصالح رضي الله عنهم وعبروا عنها أحسن تعبير قولاً وعملا.

وحين يبتلي الله سبحانه وتعالى عبده، ويحرمه نعمة من النعم؛ فإنه سبحانه وتعالى يعوضه عنها نعمة أعظم وأفضل عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر، عوضته منهما الجنة»، يريد: عينيه[٥].

---

(١) كتاب الرقائق، باب ما جاء في الرقائق، ص ٦٤١٣، ١١/ ٢٢٩، كتاب الجهاد، باب الصبر عند القتال ص ٢٨٣٤، ٦/٤٥، كتاب مناقب الأنصار باب دعاء النبي.. ٧/ ١١٨، ص٢٧٩٥.

(٢) كتاب الجهاد، باب فضل رباط يوم في سبيل الله ٦/٨٥، باب الحور العين وصفتهن، ٦/ ١٥.

(٣) كتاب الجنة، باب الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، ص ١٧٥٥/ ١٩٢.

(٤) أخرجه الإمام أحمد، ٦/ ٧١. الحديث معناه صحيح لكن سنده ضعيف انظر الضعيفة رقم ١٩٣٣)

(٥) صحيح البخاري، ٥٦٥٣.

يقول ابن بطال رحمه الله في شرح هذا الحديث: «هذا الحديث أيضًا حجة في أن الصبر على البلاء ثوابه الجنة ونعمة البصر على العبد، وإن كانت من أجل الله تعالى، فعوض الله عليها الجنة أفضل من نعمتها في الدنيا لنفاد مدة الالتذاذ بالبصر في الدنيا، وبقاء مدة الالتذاذ به في الجنة، فمن ابتلي من المؤمنين بذهاب بصره في الدنيا فلم يفعل ذلك به لسخط منه عليه، وإنما أراد تعالى الإحسان إليه إما بدفع مكروه عنه يكون سببه نظر عينيه لا صبر له على عقابه في الآخرة أو ليكفر عنه ذنوبا سلفت لا يكفرها عنه إلا بأخذ أعظم جوارحه في الدنيا ليلقى ربه طاهرا من ذنوبه أو ليبلغ به من الأجر إلى درجة لم يكن يبلغها بعمله، وكذلك جميع أنواع البلاء، فقد أخبر عليه السلام أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، وجاء عنه عليه السلام: «إن أهل العافية في الدنيا يودون لو أن لحومهم قرضت بالمقاريض في الدنيا لما يرون من ثواب الله لأهل البلاء»[(١)]، فمن ابتلي بذهاب بصره أو بفقد جارحة من جوارحه، فليتلق ذلك بالصبر، والشكر والاحتساب؛ وليرض باختيار الله له ذلك؛ ليحصل على أفضل العوضين، وأعظم النعمتين، وهي الجنة التي من صار إليها، فقد ربحت تجارته، وكرمت صفقته، ولم يضره ما لقي من شدة البلاء فيما قاده إليها»[(٢)].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «في الحديث دلالة على أن القوي يحمل ما حمل، والضعيف يرفق به إلا أنه كلما قويت المعرفة بالمبتلى هان عليه

---

(١) شعب الإيمان، ٩٤٥١.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٩/ ١٣٧٨.

البلاء، ومنهم من ينظر إلى أجر البلاء، فيهون عليه البلاء. وأعلى من ذلك درجة من يرى أن هذا تصرف المالك في ملكه فيسلم، ولا يعترض، وأرفع منه من شغلته المحبة عن طلب رفع البلاء، وأنهى المراتب من يتلذذ به؛ لأنه عن اختياره نشأ والله أعلم»[١].

وهل في الوجود جائزة أعز وأغلى من الجنة وطريق الجنة محفوفة بالابتلاءات والصبر على المحن كما يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾ [البَقَرَةِ:٢١٤]، وكما في قول رسول الله: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[٢]، فالجنة لا تنال إلا بالجهاد والامتحانات والابتلاءات، والصبر على الشهوات.

---

(١) فتح الباري، ١٠/ ١١٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة باب في الجنة وصفة نعيمها. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ١٦٥؛ البخاري في صحيحه بلفظ (حجبت) بدل (حفت) كتاب الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات، ورقمه ٦٤٨٧؛ انظر: فتح الباري، ١١/ ٣٢٠.

٣
التفكر في حال الإنسان بين الطاعة والمعصية

النص

يفكر في حاله بالنظر إلى أعماله من الطاعة والمعصية، فأما المؤمن فإنه يأتي الطاعة راغبا نشيطاً لا يريد إلا وجه الله ﷻ والدار الآخرة، فإن عرضت له رغبة في الدنيا، فإلى الله تعالى فيما يرجو معونته على السعي للآخرة، فإن كان ولا بد، ففيما يغلب على ظنه أنه لا يثبطه عن السعي للآخرة، وهو على كل حال متوكل على الله، راغب إليه سبحانه أن يختار له ما هو خير وأنفع، ثم يباشر الطاعة خاشعا خاضعا مستحضرا أن الله ﷻ يراه ويرى ما في نفسه، ويأتي بها على الوجه الذي شرعه الله ﷻ، وهو مع ذلك كما قال الله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [المُؤْمِنُون:٦٠]، فهو يخاف ويخشى أن لا تكون نيته خالصة وذلك أن النية الصالحة قد تكون من قوي الإيمان، وقد تكون من ضعيفه الذي إنما يطيع احتياطاً، وقد لا تكون خالصة بل يمازجها رغبة في ثواب الدنيا لأجل الدنيا، أو رغبة في الآثار الطبيعية ككسر الشهوة حيث لا يشرع، وكتقوية النفس، كالذي [٢/ ١٩٤] يصوم ويقوم ليكون من أهل الكشف، فيطلع على العجائب والمُغَيَّبات، فيلتذ بذلك، ويعظم جاهه بين الناس، وكذلك [من] يتعبد ليحصل له الكشف

فيصفو إيمانه، ويستريح من الوسوسة ومدافعة الشبهات، فإن هذه الطريقة غير مشروعة، ومن شأنها أن تجر إلى تعاطي الأسباب الطبيعية لتقوية النفس، وإن كانت منهيا عنها في الشرع، كما هو معروف في بدع المتصوفة، ومن حصل له الكشف بهذه الطريق، فهو مظنة أن يضعف إيمانه أو يزول عقوبة له على سلوكه غير السبيل المشروع، حتى لو كشف له عن شيء مما يجب الإيمان به فشاهده لم ينفعه هذا الإيمان كما يُعلم مما تقدم، وإنما المشروع أن يجاهد نفسه، ويصرفها عن الشبهات والوساوس، مستعينا بطاعة الله تعالى والوقوف عند حدوده، مبتهلا إليه ﷻ أن يثبت قلبه بما شاء سبحانه، فهذا إنما يحمل على اتباع الشرع والاهتداء بهداه.

وكمنفعة البدن، كالذي يصوم ليصح، ويصلي التراويح لينهضم طعامه، وكموافقة الإلف والعادة كمن اعتاد الصلاة من صباه، فيجد نفسه تنازعه إلى الصلاة فلا تستقر حتى يصلي؛ فإن هذا قد يكون كالذي اعتاد العبث بلحيته فيجد نفسه تنازعه إلى ذلك، حتى لو كف عن ذلك أو منع منه شق عليه، وكحب الترويح عن النفس، كالذي يأتي الجمعة ليتفرج، ويلقى أصحابه، ويقف على أخبارهم، وكمراعاة الناس لكي يمدحوه ويثنوا عليه، فيعظم جاهه، ويصل إلى أغراضه، ولا يمقتوه، إلى غير ذلك من المقاصد، كالمرأة تتزين وتتعطر وتخرج إلى الصلاة لتشاهد الرجال وتلفتهم إليها، وكالعالم يريد أن يراه الناس ويعظموه ويستفتوه، فيشتهر علمه، ويعظم جاهه، وكالمنتسب إلى الصلاح يريد أن يعظمه الناس ويقبلوا يديه ورجليه، ويشتهر ذكره، ويتساقط الناس في شبكته، وكالحاكم النابه يريد أن يتطاول

الناس إلى رؤيته، ويتزاحموا، وترتفع أصواتهم بمدحه وغير ذلك.

والمؤمن ولو خلصت نيته في نفس الأمر لا يستطيع أن يستيقن ذلك من نفسه.

[٢/ ١٩٥] والمؤمن يخاف ويخشى ألا يكون أتى بالطاعة على الوجه المشروع، وذلك من أوجه:

منها: أن للصلاة مثلا شرائط وأركانا وواجبات قد اختلف في بعضها، والمجتهد إنما يراعي اجتهاده، فيخشى أن يكون قصر في اجتهاده أو استزله الهوى، والعامي إنما يتبع قول مفتيه أو إمامه أو بعض فقهاء مذهبه، فيخشى أن يكون قصر أو تبع الهوى في اختيار قول ذاك المفتي، أو في الجمود على مذهب إمامه في بعض ما اختلف فيه.

ومنها: أن روح الصلاة الخشوع، والنفس تتنازعها الخواطر فلا يثق المؤمن بأنه خشع كما يجب، فإن حاولت نفس المؤمن أن تُقنعه بإخلاصها في نيتها واجتهادها وخشوعها خشي على نفسه أن يكون مغرورا مسامحا لنفسه.

وهكذا تستمر خشية المؤمن بالنظر إلى طاعاته السالفة، يرجو أن يكون قبلها الله تعالى بعفوه وكرمه، ويخشى أن تكون رُدَّت لخلل فيها، وإن لم يشعر به، أو لخلل في أساسها وهو الإيمان.

هذه حال المؤمن في الطاعات، فما عسى أن تكون حاله في المعاصي؟

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ

تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأَعْرَاف:٢٠١-٢٠٢].

فالمؤمن يتصارع إيمانه وهواه، فقد يُطيف به الشيطان، فيغفله عن قوة إيمانه، فيغلبه هواه، فيصرعه، وهو حال مباشرة المعصية ينازع نفسه، فلا تصفو له لذتها، ثم لا يكاد جنبه يقع على الأرض حتى يتذكر، فيستعيد قوة إيمانه، فيثب يعض أنامله أسفًا وحزنا على غفلته التي أعان بها عدوه على نفسه، عازما على ألا يعود لمثل تلك الغفلة.

وأما إخوان الشياطين، فَتمُدُّهم الشياطين في الغي، فيمتدون فيه، ويمنونهم الأماني فيقنعون، فمن الأماني أن يقول: الله قدره علي، فما شاء فعل، قد اختلف العلماء في حرمة هذا الفعل، قد اختلفوا في كونه كبيرة والصغائر أمرها هين، لي حسنات كثيرة تغمر هذا الذنب، لعل الله يغفر لي، لعل فلانا يشفع لي سوف أتوب وأحسن حاله أن يقول: أستغفر الله، أستغفر الله، ويرى أنه قد تاب ومحي ذنبه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ

مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النِّسَاء:١١٩-١٢٤].

وقال ﷻ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا﴾ [الأَعْرَاف:١٦٩].

وفي «مسند أحمد» و«المستدرك»[١] وغيرهما من حديث شدّاد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني».

وفي «الصحيحين»[٢] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا - أي بيده - فذبه عنه».

---

(١) المسند (١٧١٢٣)؛ المستدرك، ١/ ٥٧، ٤/ ٢٥١؛ أخرجه أيضًا الترمذي (٢٤٥٩)؛ ابن ماجه، (٤٢٦٠)؛ الكبرى، البيهقي، ٣/ ٣٦٩. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وصححه الحاكم، فتعقبه الذهبي في الموضع الأول بقوله: لا والله، أبو بكر بن أبي مريم، واه.

(٢) أخرجه البخاري، (٦٣٠٨)؛ مسلم (٢٧٤٤) فلم يخرج هذا الحديث الموقوف بل أخرج منه الجزء المرفوع: لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن......

التعليق

❑ التفكر في حال الإنسان وأعماله:

ينبغي للإنسان أن يتفكر في حاله وأعماله باستمرار، فينظر في طاعاته هل أداها بإخلاص وخشوع أم شابتها رغبات دنيوية، وفي معاصيه هل تاب منها توبة صادقة أم استسلم للغفلة. فالتفكر في هذه الأمور يدفع المؤمن لمراجعة نيته وتصحيح مساره، ساعيًا دائمًا لتحقيق رضى الله ﷻ والابتعاد عن الغرور والتهاون.

ويُحث الإنسان على النظر في حاله وما يقوم به من أعمال سواء كانت طاعة أو معصية، هذا التفكر يجعله يقيم نفسه بشكل مستمر، مما يعزز من إيمانه ويجعل كل عمل يقوم به يتسم بالنية الصالحة والسعي للخير «فالتفكر تصرف القلب في معالي الأشياء لدرك المطلوب»[١]: التفكر سراج القلب يرى به خيره وشره ومنافعه ومضاره وكل قلب لا تفكر فيه فهو في ظلمات يتخبط، وقيل هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء، وقيل التفكر تصفية القلب بموارد الفوائد، وقيل مصباح الاعتبار ومفتاح الاختبار[٢].

وقد عده العلماء عمودا فقريا لبناء الإيمان اليقيني، لأن «التفكر يوقع صاحبه من الإيمان ما لا يوقعه العمل المجرد، فإن التفكر يوجب له انكشاف حقائق الأمور وظهورها له، وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها

---

(١) التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٥٨م.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٦.

من فاضلها، وأقبحها من قبيحها ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها....»[(١)].

ولذلك كان التفكر من أفضل العبادات فهو يورث الحكمة، وينشط العقول ويحيي القلوب، ويغرس فيها الخوف والخشية من الله ﷻ.

يقول ابن القيم رحمه الله: ثبت عن بعض السلف أنه قال: تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة، وقال الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، وقيل لإبراهيم إنك تديم الفكرة، فقال: الفكرة مخ العقل، وكان سفيان كثيرا ما يتمثل:

إذا المرء كانـــــت له فكرة ففي كل شـــــيء له عبرة[(٢)]

وقال الحسن رحمه الله في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] قال: أمنعهم التفكير فيها، وقال بشر: لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه، وقال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب.

❑ المؤمن وطريق الطاعة:

ينبغي للمؤمن أن يجعل نصب عينيه طريق الطاعة، متفكرًا في مدى إخلاصه لله في أعماله، ومراقبًا نفسه في كل خطوة، يسعى المؤمن للطاعة بنية خالصة، ملتزمًا بما شرعه الله، ومتحريًا الخشوع والتواضع. ومع ذلك،

---

(١) مفتاح السعادة، ١/ ٥٤٠.

(٢) مفتاح دار السعادة (ص ٢٠٠)

يبقى خائفًا من التقصير أو الرياء، متذكرًا أن الطاعة الحقيقية هي ما تكون لله وحده، بعيدًا عن الأهواء والمصالح الدنيوية.

وحقيقة الطاعة امتثال الأمر كما أن المعصية ضدها وهي مخافة للأمر، والطاعة مأخوذة من طاع إذا انقاد، والمعصية مأخوذة من عصى وهو اشتد[١]، وبنحو ما سبق سار الراغب الأصفهاني وأضاف: الطوع الانقياد، والطاعة مثله لكن أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر، والارتسام فيما رسم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [مُحَمَّد:٣٣]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء:٨٠]، ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي أمر بالطاعة أطيعوا[٢].

إذن الطاعة هي تنفيذ الأوامر اختيارا لا إجباراً لأن عكسها الإكراه أو الإجبار، ومن أجل هذا فالانسان يستطيع أن يعصي ويستطيع أن يطيع، فهو مخير غير مجبر، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان وكرمه على سائر المخلوقات.

والمؤمن يأتي الطاعة برغبة ونشاط، ولا يسعى من ورائها إلا لمرضاة الله تعالى ونيل ثواب الدار الآخرة. إذا كانت هناك رغبة في الدنيا، فيجب أن تكون متصلة بالله ﷻ بمعنى أنها وسيلة لتحصيل ما يعينه على العمل للآخرة. إذا كانت الطاعة لا بد منها، فإن المؤمن يختار ما يظن أنه لن يعيقه عن السعي للآخرة

(١) أحكام القرآن، ابن العربي، دار الفكر العربي، ١/ ٤٥١.
(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٣١٠.

❑ التوكل والخشوع في الطاعة:

ينبغي للإنسان أن يتفكر دائمًا في أهمية التوكل على الله والخشوع في الطاعة. فالمؤمن يباشر أعماله متوكلًا على الله، راجيًا عونه، ويؤدي عباداته بخشوع قلب، مستشعرًا مراقبة الله له. يسعى لتحقيق الطاعة بالوجه الذي يرضي الله، مع خشية دائمة من القصور أو الرياء، مما يجعله في حالة توازن بين الرجاء والخوف.

المؤمن يتوكل على الله في كل أموره، ويطلب منه أن يختار له الخير في الدنيا والآخرة. عند القيام بالطاعة، يقوم بها بخشوع وخضوع لله تعالى، مدركاً أن الله يراه ويراقب ما في نفسه. يستحضر في نفسه أن الطاعة يجب أن تكون وفقاً لما شرعه الله تعالى التوكل هو مبدأ الأحوال التي تخص عالم الأمر أو السير الروحاني بالاعتماد على الله والثقة به، ثم المضي قلبا في دائرة التبري من كل قوة وحول بشري، وفي النتيجة إحالة كل شيء إلى القدير المطلق وبلوغ الاعتماد التام على الله وجدانا في النهاية.

والتوكل أن يعتمد الإنسان على الله وما عنده، ويوصد أبواب القلب دون سواه، ويمكن أن نعني بهذا طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية.

وقد أحسن من قال:

توكل على الرحمن في الأمر كله ... فما خاب حقا من عليه توكلا

وكن واثقا بالله واصبر لحكمه ... تفز بما ترجـــــوه منه تفضلا

واعتقد أن سيدنا عمر رضي الله عنه أراد هذا المعنى في رسالته التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري، جاء فيها: «أما بعد فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر»[١].

والخشوع لغة: السكون والتذلل، قاله صاحب النهاية، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا﴾ [الحشر:٢١]، وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ [فصلت:٣٩]، وقال ابن تيمية كما في «المجموع» (٧/٢٨): «والخشوع يتضمن معنيين: أحدهما: التواضع والذل، والثاني: السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة».

ولذلك يجتمع الخشوع والذل في الآية الواحدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى:٤٥]، وفي قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ [القلم:٤٣].

وأصل الخشوع: لين القلب، ورقته، وسكونه، و خضوعه، وانكساره، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له[٢].

والخشوع في الصلاة هو روح العبادة وأساسها، حيث يعيش المؤمن حالة من الخوف والرهبة من عدم إتمام الطاعة على الوجه المشروع، وذلك يظهر من جوانب عدة: منها أنه قد يشك في صحة اجتهاده في أداء شروط الصلاة وأركانها، خاصة مع اختلاف الفقهاء في بعض التفاصيل، كما أن

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، ٢/ ١٧٠.
(٢) الخشوع في الصلاة، ابن رجب الحنيل، دار الفضيلة، القاهرة، ص ٢٩.

روح الصلاة هو الخشوع، وهو أمر يصعب تحقيقه بشكل كامل بسبب تسلل الخواطر والمشاغل للنفس أثناء الصلاة. حتى لو ظن المؤمن أنه قد حقق الإخلاص والخشوع، فإنه يخشى أن يكون قد غرر بنفسه، مسامحًا لها في قصورها، لذا يظل المؤمن مترددًا بين الرجاء في قبول طاعاته والخوف من ردها بسبب خلل لم يدركه.

وحينما يتحقق الخشوع في الصلاة، يشعر المسلم في أعماقه أنه يخاطب ربه، ويحس أن الله يسمعه ويجيبه، فيجد حلاوة الصلاة، ويستريح بها وفيها وليس منها، وتكون قرة عينه، ويجد فيها من سكينة القلب، وراحة النفس ما يعلو به على أكدار الحياة وطغيان المادة، لا سيما في عصرنا الذي فشت فيه مظاهرها، ويظفر بالفلاح الذي بشر الله سبحانه وتعالى به الخاشعين فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المُؤْمِنُون:١-٢]، كما يفوز بقبول الطاعة، وتكفير الخطايا، قال: «من توضا نَحْوَ وُضُوئي هذا، ثُمَّ صَلَّى ركعتين لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غفر له ما تقدم من ذنبه»[(١)].

وليس معنى ذلك ألا يعرض له في الصلاة حديث نفس مطلقاً؛ فليس هذا في مقدور الإنسان، بل معناه الا يسترسل مع ما يعرض له من حديث النفس بأمور الدنيا، فلو عرض له حديث فأعرض عنه حصلت له هذه الفضيلة وقد عفي لهذه الأمة عن الخواطر التي تعرض ولا تستقر[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٥٩)؛ مسلم برقم (٢٢٦)؛ في رواية المسلم برقم (٢٢٨)، فيحسن وضوءها وخشوعها، وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب.

(٢) شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ٣/ ١٠٨.

❑ وهذه قبسات من صلاة الخاشعين:

ومما يشوق المسلم للخشوع تمثله بالنماذج الوضيئة في الخشوع، ولا ريب أن أعظمها رسولنا ﷺ: فهو إمام العابدين وسيد الخاشعين، وقد كان يصلي ولصدره أزيز كازيز المرجل من البكاء[١]؛ أي: كغليان القدر.

وكان أبو بكر رضي الله عنه رقيقاً بكاء لا يملك دمعه، فلا يسمع الناس من البكاء إذا صلى بهم[٢].

وصلى عمر رضي الله عنه بالناس فسمع نشيجه من آخر الصفوف وهو يقرأ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف:٨٦][٣].

وصلى مسلم بن يسار رحمه الله ولم يشعر بسقوط ناحية من المسجد، وقد اجتمع الناس عليها، فما التفت[٤]! ولما سئل حاتم الأصم رحمه الله عن صلاته قال: إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي أظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر

(١) أخرجه أبو داود برقم (٩٠٤)؛ النسائي برقم (١٢١٤)؛ الحاكم برقم (٩٧١) وصححه، وأقره الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧١٦)؛ مسلم برقم (٤١٨)

(٣) أخرجه البخاري معلقاً باب إذا يكن الإمام في الصلاة.

(٤) حلية الأولياء، الأصفهان، دار الفكر، بيروت، ٢/ ٢٩٠.

تكبيراً بتحقيق، وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجد سجوداً بتخشع، وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا[(١)].

❐ الخوف من عدم إخلاص النية:

ينبغي للإنسان أن يتفكر دائمًا في خطر عدم إخلاص النية في أعماله. فالمؤمن يخشى أن تشوب طاعته نية غير خالصة لله، سواء بدافع حب الدنيا أو طلب المدح. هذه الخشية تدفعه لمراجعة قلبه باستمرار، سائلًا الله أن يطهر نيته ويقبله بصدق، إذ أن قبول العمل مرهون بإخلاص النية وابتغاء وجه الله وحده.

النية روح العمل ولبه وقوامه، وهو تابع لها، يصح بصحتها ويفسد بفسادها؛ لذا فإن من أوتي جوامع الكلم ﷺ قال: كلمتين كفتا وشفتا وتحتهما كنوز العلم وهما قوله: «إِنَّما الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى».

المؤمن رغم كل ما يقوم به من طاعات وخشوع، يبقى خائفاً وقلقاً من أن نيته قد لا تكون خالصة لله. هذا الخوف ينبع من الآية القرآنية: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [المُؤْمِنُون:٦٠]. يظل المؤمن يخشى ألا يقبل الله عمله، فيبقى دائم المراقبة والإصلاح لنفسه.

---

(١) إحياء علوم الدين، ١/ ١٥١.

❑ تفاوت النية بين قوة وضعف الإيمان:

ينبغي للإنسان أن يتفكر في تفاوت نيته بين قوة وضعف الإيمان، فقد تكون النية صالحة خالصة عند المؤمن القوي، بينما قد تضعف عند من يقوم بالطاعة بدافع الاحتياط أو لمآرب دنيوية. الإخلاص يتأثر بقوة الإيمان؛ كلما زاد الإيمان زاد معه حرص المؤمن على أن تكون نواياه خالصة لوجه الله، بعيدًا عن أي شوائب.

النية في الطاعة قد تكون نابعة من قوة الإيمان وقد تكون من ضعفه، فالمؤمن القوي يؤدي الطاعة خالصة لوجه الله، بينما قد يطيع المؤمن الضعيف بدافع الاحتياط فقط. هناك أيضًا من يؤدي الطاعة ونيته ممزوجة برغبات دنيوية كتحصيل الثواب لأجل الدنيا، أو لآثار طبيعية مثل كسر الشهوة أو تقوية النفس.

النية لا تؤثر في الإخلاص، وإنما تتأثر النية بالإخلاص: بحيث إنه إذا وجد الإخلاص، حسنت النية وأثيب الناوي إذا تابع بها عقيدة الإسلام ونبي الإسلام، ولكن الدرجة تتفاوت، فهناك المخلص في بعض الأعمال؛ وهذا لا يكفي، وهناك المخلص في كل الأعمال، لأنه جمع بين جوانحه قلبا صالحا، وقد قال في حديث النعمان بن بشير الذي رواه البخاري ومسلم: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله»، فإخلاص القلب وصلاحه يقيم دعائم نية سليمة لا تهدف إلا إلى الخير، ولا تتمثل غير التقوى، ولا تبتغيى سوى الأمن التام في الآخرة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

[الشُّعَرَاء:٨٨-٨٩].

والنية التي تتأثر بالإخلاص لا تتجه إلا إلى الله، لذا فإنها إذا لم تتجه في عملها من منطلق الإخلاص تخلفت النية ديانة، ولذا يقول ابن حزم فإن نوت النفس بالعمل الذي تصرف فيه الجسد وجها ما، فليس لها غيره، وصح أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل إلا ما أمر به، وقد أمر بالإخلاص له، فكل عمل لم يقصد به الوجه الذي أمر الله تعالى به فليس ينوب «أي ذلك العمل» عما أمر الله تعالى به «من عمل»[١].

فمن توضأ تبردًا، أو تيمم بغير نية، أو مشى بالمناسك دون نية، فإن ذلك لا يجزيه عن الوضوء أو التيمم، أو الحج المامور به أو المتطوع به لله تعالى؛ لأنه لم يخلص في كل ذلك لله ﷻ، ولا فعله ابتغاء مرضاته تعالى، ولا نوى به ما أمر به[٢] ولا نعدام التقوى التي محلها القلب، وانتفاء النية التي هي عمل القلب[٣]، وتخلف الإخلاص حيث إن المخلص: هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله ﷻ، ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله[٤].

(فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء) [٥].

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، ٨٠٥/ ٧٠٦.
(٢) الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، ٨٠٥/ ٧٠٦.
(٣) بدائع الفوائد، ابن القيم، مطبعة القاهرة، ٣/ ٢٢٩.
(٤) شرح حديث إنما الأعمال بالنيات لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص٢٠.
(٥) إحياء علوم الدين، الغزالي، ١/ ٣٥٠؛ الإخلاص، ابن رجب الحنبلي، ص٨.

❑ النية غير المشروعة والآثار السلبية:

ينبغي للإنسان أن يتفكر في خطورة النية غير المشروعة والآثار السلبية المترتبة عليها. مثل من يعبد الله بغرض تحقيق منافع دنيوية أو اكتساب قدرات خاصة كالكشف عن المغيبات. هذه النية قد تقود صاحبها إلى طرق غير مشروعة وتحرفه عن الهدي الصحيح، مما يضعف إيمانه وقد يؤدي إلى زواله. النية المشروعة تكون في التزام الطاعة لله خالصة واتباع أوامره بعيدًا عن الأغراض النفسية والدنيوية.

هناك طاعات يؤديها البعض بهدف تحقيق مكاسب غير شرعية مثل السعي لكشف المغيبات أو الحصول على الكرامات التي تعزز مكانته بين الناس. هذه الطريقة تعتبر من البدع وقد تجر إلى استخدام وسائل غير مشروعة لتقوية النفس، من يسلك هذا الطريق قد يُعاقب بضعف إيمانه أو زواله، حتى لو حصل على ما يسعى إليه، فإنه لا ينفعه في إيمانه.

❑ الطريق المشروع لجهاد النفس:

ينبغي للإنسان أن يتفكر في الطريق المشروع لجهاد النفس، وهو مجاهدة الشبهات والوساوس بالتمسك بطاعة الله والالتزام بحدوده، هذا يتحقق بالتوكل على الله، والالتجاء إليه بالدعاء والثبات على الطاعة، مع الابتعاد عن الأساليب غير المشروعة التي قد تضر بالإيمان، جهاد النفس المشروع يحمل صاحبه على اتباع الشرع والسير على هديه في كل أمور حياته.

وجهاد النفس يكون بمخالفة هواها النفس، وأن يلجمها بلجام التقوى لأنها إن تركت ازدادت توغلاً في غيها واستغراقاً في أمرها[١].

ويكون جهادها أيضاً بقهرها وبحثها على ملازمة الطاعات ومجانبة المنهيات ومراقبتها على مرور الأوقات، ومحاسبتها على ما ربحته وخسرته في دار المعاملة من السعادات وكسر قوتها البهيمية والسبعية بالرياضات[٢].

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾، قد أفلح من زكي نفسه،وطهرها ونمّاها بالخيرات، وخاب من أخفاها وحقرها أي وصغر قدرها بالمعاصي والبخل بما يجب.

هذا هو أصل الجهاد وأشد أنواعه وهو الجهاد الأكبر روي أن النبي ﷺ لما عاد من غزوة تبوك قال: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)[٣]، ولهذا كان فرض عين على كل مسلم[٤].

وجاء في فيض القدير: ([قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر] وهو جهاد العدو المباين (إلى الجهاد الأكبر) وهو جهاد العدو المخالط

---

(١) آيات الأحكام، السايس، ٣/ ٩٥.

(٢) مجمع البحرين، الطريحي، ٣/ ٣٢.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد: ١٣/٤٩٣، ونصه: « عن عطاء بن أبي رياح عن جابر. قال: قدم النبي من غزاة له، فقال لهم رسول الله (ﷺ): (قدمتم خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر). قالوا وما الجهاد الأكبر يارسول الله؟ قال: (مجاهدة العبد هواه). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الفتاوى» (١١/ ١٩٧): أما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في عزوة تبوك : (رجعنا من الجهاد الأصغر ، إلى الجهاد الأكبر ، فلا أصل له) ، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله»] .

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٩٥؛ انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس، ٢/ ٩٥-٩٦.

قالوا وما الجهاد الأكبر قال (مجاهدة العبد هواه) فهي أعظم الجهاد وأكبره لأن قتال الكفار فرض كفاية وجهاد النفس فرض عين على كل مكلف في كل وقت)[١].

وجعله ابن القيم رحمه الله أصل الجهاد والقتال في سبيل الله فرعاً له: ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج، فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال (ﷺ) (المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له، فإن مالم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهت عنه، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج[٢].

والطريق الصحيح هو أن يجاهد المؤمن نفسه في دفع الشبهات والوساوس عن طريق الالتزام بطاعة الله والوقوف عند حدوده، الاستعانة بالله والدعاء بتثبيت القلب هو السبيل المشروع الذي يقود للثبات على الإيمان والسير على هدى الشرع.

- المقاصد الدنيوية في الطاعة والعبادة وأهمية إخلاص النية لله تعالى:

ينبغي للإنسان أن يتفكر في المقاصد الدنيوية التي قد تداخل الطاعة والعبادة، مثل السعي وراء الثناء أو المنفعة الشخصية. هذه النوايا قد تُفسد العمل إذا لم يكن الإخلاص فيها لله تعالى.

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ١، ١٣٥٦هـ، ٤/ ٥١١.

(٢) زاد المعاد، ٢/ ٣٩.

الإخلاص هو أساس قبول العمل، حيث يجب أن تكون الطاعة لله وحده، طلبًا لرضاه وثوابه في الآخرة، بعيدًا عن أي غرض دنيوي

فالعبادة عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف(١).

وهي الطاعة مع التذلل والامتثال لأمر الله وذلك في تفسير الإمام الطبري لظاهر قوله تعالى على لسان فرعون وملئه في شأن موسى وهارون: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ [المُؤۡمِنُون:٤٧].

– ويرى الراغب الأصفهاني رحمه الله أن العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

العبادة واجبة على كل مسلم، ويجب أن تكون خالصة لوجه الله تعالى، بعيدة عن الرياء أو السعي لمصالح دنيوية. الإخلاص في العبادة يعني أن يكون الهدف منها رضا الله وحده، سواء كانت صلاة، صيام، صدقة، أو غيرها من الأعمال الصالحة. فالنية الصافية هي أساس قبول العمل، كما قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، وبالتالي، لا يُقبل العمل إلا إذا كان خالصًا لوجه الله، دون أي شائبة من الرياء أو الأغراض الدنيوية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (القلب فيه فقر ذاتي إلى ربه (بالفطرة) من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة، والسكون والطمأنينة وهذا لا يحصل إلا بإعانة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، المكتبة التوفيقية، ١/ ٢٥.

الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائما مفتقر إلى حقيقة (إياك نعبد وإياك نستعين) فالقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين من جهة العبادة ومن جهة الاستعانة والتوكل، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده وحبه والإنابة إليه) [١].

وهكذا كلما أخلص الإنسان العبودية لله وجد نفسه، واهتدى إلى سر وجوده، ووجد مع ذلك سعادة روحية لا تدانيها سعادة، تتمثل فيما سماه الرسول ﷺ بـ(حلاوة الإيمان)، فعبادة الله وحده دون اشراك شرط التمكين وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النُّور:٥٥].

❑ صعوبة التحقق من إخلاص النية:

من الأمور التي ينبغي للإنسان التفكر فيها دائمًا هي صعوبة التحقق من إخلاص النية. فالمؤمن قد يعجز عن اليقين بأن نيته خالصة لله، إذ تتداخل رغبات النفس وتزيّن له الأعمال، مما قد يُخفي عنه حقيقة مقاصده. لذلك، يبقى المؤمن في خشية مستمرة، يدعو الله أن يرزقه الإخلاص ويتجنب الرياء، مدركًا أن التحقق من صفاء النية أمر دقيق وصعب.

حتى المؤمن الصادق قد يجد صعوبة في التيقن من إخلاص نيته

(١) رسالة العبودية، ابن تيمية، ص ١٠٨.

تمامًا. رغم سعيه لخلوص النية، إلا أن النفس البشرية معقدة، وقد تتداخل فيها الدوافع والغايات بطرق خفية تجعل من الصعب الجزم بصفاء النية بشكل مطلق.

❑ صراع المؤمن بين الإيمان والهوى:

من الأمور التي ينبغي للإنسان التفكر فيها هو صراع المؤمن بين الإيمان والهوى. يواجه المؤمن دائمًا تحديات في موازنة إيمانه مع ميول نفسه ورغباتها. الهوى قد يزين له المعصية ويبعده عن الطاعة، مما يتطلب منه مجاهدة دائمة ووعيًا دائمًا ليحافظ على مساره الصحيح. هذا الصراع المستمر يعزز الحاجة إلى الاستعانة بالله والتزام الطريق المستقيم رغم التحديات النفسية والشهوات.

من الطاعات التي نهانا الله عنها، طاعة هوى النفس وهي طاعة تتعارض مع طاعة الله. وقد حذر الله منها في آيات كثيرة لأنها سبيل إلى التهلكة وهي السبب في أول جريمة قتل في الأرض وذلك عندما قتل قابيل أخاه هابيل. قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المَائِـدَة:٣٠] أي حسنت وسولت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله[١].

وآيات أخرى تحذر من مغبة هوى النفس ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكَهۡف:٢٨]

(١) تفسير ابن كثير، ٢/ ٤٦.

أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، واتبع هواه وكان أمره فرطاً أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعا ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه[١]، وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾ [الرُّوم:٢٩] أي لا يجوز أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم بغير علم واتبعوا شركاء من غير دليل، ثم بين أن ذلك بإرادة الله بقوله: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي هؤلاء أضلهم الله فلا هادي لهم[٢].

وفي الحديث الشريف قال شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله) [٣].

فالمؤمن يعيش حالة من الصراع الداخلي بين قوة إيمانه وميول نفسه. في لحظات الغفلة، قد يغلبه هواه بوسوسة الشيطان، فيقع في المعصية. إلا أنه، حتى في تلك اللحظة، لا تكتمل له لذة المعصية لأنه يشعر بعدم الارتياح الداخلي، سرعان ما يتذكر الله ويستعيد قوة إيمانه، فيندم على ضعف لحظي جعله يقع فريسة للشيطان، ويعزم على عدم تكرار الغفلة.

---

(١) تفسير ابن كثير، ٥/ ١٣٧.

(٢) التفسير الكبير، ٢٥/ ٩٩.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٤/ ١٢٤ .تقدم الكلام عليه

❑ تلاعب الشيطان بضعاف الإيمان:

أما أولئك الذين يكونون إخوان الشياطين، فتستمر الشياطين في مدهم بالغي والضلال، فينغمسون فيه ويقنعون أنفسهم بأماني زائفة، قد يبررون لأنفسهم المعاصي بأعذار مثل: «الله قدره علي»، أو «العلماء اختلفوا في حرمة هذا الفعل»، أو «الصغائر أمرها هين»، هذه التبريرات تجلب لهم شعورًا زائفًا بالأمان، مما يجعلهم يستمرون في غيهم، لأن الشيطان يزين للإنسان الأمور فيعده ويمنيه وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ [البَقَرَة:٢٦٨] يعني يخوفكم به إن تصدقتم فتمسكوا عن الصدقة، ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ البخل ومنع الزكاة. ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ على الإنفاق، ﴿مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ﴾ لذنوبكم، ﴿وَفَضۡلٗا﴾ رزقا خلفا منه، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فضله ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمنفق[1].

ولا يكون إغواء الشيطان وسلطانه إلا لغير المخلصين من عباد الله، وأتباع الشيطان هم أصحاب النار.

---

(١) تفسير الجلالين، ص ٦٠.

٤ الهوى والحق: تأثيراتهما على الأحكام والقرارات

النص

يفكر في حاله مع الهوى، افرض أنه بلغك أنَّ رجلا سب رسول الله ﷺ، وآخر سب داود عليه السلام، وثالثا سب عمر أو عليا رضي الله عنهما، ورابعا سب إمامك، وخامسا سب إماما آخر، أيكون سخطك عليهم وسعيك في عقوبتهم وتأديبهم أو التنديد بهم موافقا لما يقتضيه الشرع، فيكون غضبك على الأول والثاني قريبا من السواء وأشد مما بعدهما جدا، وغضبك على الثالث دون ذلك وأشد مما بعده، وغضبك على الرابع والخامس قريبا من السواء ودون ما قبلهما بكثير؟

افرض أنك قرأت آية، فلاح لك منها موافقة قول لإمامك، وقرأت أخرى، فلاح لك منها [٢/١٩٧] مخالفة قول آخر له، أيكون نظرك إليهما سواء، لا تبالي أن يتبين منهما بعد التدبر صحة ما لاح لك أو عدم صحته؟

افرض أنك وقفت على حديثين لا تعرف صحتهما ولا ضعفهما، أحدهما يوافق قولا لإمامك، والآخر يخالفه أيكون نظرك فيهما سواء، لا تبالي أن يصح سند كل منهما أو يضعف؟

افرض أنك نظرت في مسألة قال إمامك فيها قولا، وخالفه غيره، ألا يكون لك هوى في ترجيح أحد القولين، بل [١] تريد أن تنظر لتعرف الراجح منهما، فتبين رجحانه؟

افرض أن رجلا تحبه وآخر تبغضه تنازعا في قضية، فاسْتَفْتِيتَ فيها ولا تستحضر حكمها، وتريد أن تنظر؛ ألا يكون هواك في موافقة الذي تحبه؟ افرض أنك وعالما تحبه وآخر تكرهه أفتى كل منكم في قضية، واطلعت على فتويي صاحبيك فرأيتهما صوابا، ثم بلغك أن عالما آخر اعترض على واحدة من تلك الفتاوى وشدَّد النكير عليها، أتكون حالك واحدة، سواء كانت هي فتواك، أم فتوى صديقك، أم فتوى مكروهك ؟

افرض أنك تعلم من رجل منكرًا، وتعذر نفسك، في عدم الإنكار عليه، ثم بلغك أن عالما أنكر عليه وشدَّد النكير، أيكون استحسانك لذلك سواء فيما إذا كان المنكر صديقك أم عدوك، والمنكر عليه صديقك أم عدوك ؟

فتش نفسك تجدك مبتلى بمعصية أو نقص في الدين، وتجد من تبغضه مبتلى بمعصية أو نقص آخر ليس في الشرع بأشد مما أنت مبتلى به، فهل تجد استشناعك ما هو عليه مساويا لاستشناعك ما أنت عليه، وتجد مقتك نفسك مساويا لمقتك إياه؟

وبالجملة، فمسالك الهوى أكثر من أن تُحصى، وقد جربت نفسي أنني ربما أنظر في القضية زاعما أنه لا هوى لي، فيلوح لي فيها معنى، فأقرره

---

(١) كذا في المطبوع، ولعل الصواب: «هل».

تقريرا يعجبني، ثم يلوح لي ما يخدش في ذاك المعنى، فأجدني أتبرم بذلك الخادش، وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب، وإنما هذا لأني لما قررتُ ذاك المعنى أولا تقريرًا أعجبني صرت أهوى صحته، هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس، ثم [٢/ ١٩٨] لاح لي الخدش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش، ولكن رجلا آخر اعترض عليّ به؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه؟!

هذا ولم يكلف العالم بأن لا يكون له هوى، فإنّ هذا خارج عن الوسع، وإنما الواجب على العالم أن يفتش نفسه عن هواها حتى يعرفه، ثم يحترز منه، ويُمعن النظر في الحق من حيث هو حق؛ فإن بان له أنه مخالف لهواه آثر الحق على هواه، وهذا - والله اعلم - معنى الحديث الذي ذكره النووي في «الأربعين»[١] وذكر أن سنده صحيح، وهو: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

والعالم قد يقصر في الاحتراس من هواه، ويسامح نفسه، فتميل إلى الباطل، فينصره وهو يتوهم أنه لم يخرج من الحق ولم يُعاده، وهذا لا يكاد ينجو منه إلا المعصوم، وإنما يتفاوت العلماء، فمنهم من يكثر منه الاسترسال مع هواه ويفحش حتى يقطع من لا يعرف طباع الناس ومقدار تأثير الهوى بأنه

---

(١) هو الحديث رقم (٤١)، السنة، ابن أبي عاصم، ص١٥؛ تاريخ بغداد، الخطيب، ٤/ ٣٦٩؛ شرح السنة، البغوي، ص١٠٤، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وتفرد به نعيم بن حماد المروزي وهو ضعف في الرواية.

متعمد، ومنهم من يقل ذلك منه ويخف، ومن تتبع كتب المؤلفين الذين لم يسندوا اجتهادهم إلى الكتاب والسنة رأسا رأى فيها العجب العجاب، ولكنه لا يتبين له ذلك إلا في المواضع التي لا يكون له فيها هوى، أو يكون هواه مخالفًا لما في تلك الكتب، على أنه إذا استرسل مع هواه زعم أن موافقيه براء من الهوى، وأن مخالفيه كلهم متبعون للهوى، وقد كان من السلف من يبالغ في الاحتراس من هواه حتى يقع في الخطأ من الجانب الآخر، كالقاضي يختصم إليه أخوه وعدوه، فيبالغ في الاحتراس حتى يظلم أخاه، وهذا كالذي يمشي في الطريق، ويكون عن يمينه مزلة، فيتقيها ويتباعد عنها، فيقع في مزلة عن يساره!

التعليق

❑ تأثير الهوى في تقييم الإساءات والردود عليها:

يستعرض المحقق المعلمي كيفية تأثير الهوى الشخصي في استجابة الأفراد للإساءات التي توجه إلى شخصيات مختلفة. يطرح التساؤل حول ما إذا كان الشخص سيختلف في شدة سخطه وسعيه للعقاب بناءً على مدى قرب الشخص المسيء من دائرة اهتمامه أو المعتقدات الشخصية.

كما يسلط الضوء على ميل الأفراد إلى تبني مواقف أكثر شدة عند تعرض الشخصيات الأقرب إلى قلوبهم للإساءة، بينما قد يتسامحون في حالات أخرى. هذا التفاوت يعكس تأثير الهوى في الحكم والرد على الأفعال التي قد تكون متساوية من حيث الأثر الشرعي. يتضح من الفقرة أن الهوى يمكن أن يؤثر بشكل كبير على كيفية تقييم الأفعال واتخاذ المواقف، مما يتطلب وعيًا مستمرًا ومراجعة للنوايا والأحكام لضمان التوازن والعدل.

يقول ابن الجوزي ﵀ عن الهوى أنه «ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلب له ما يفيد»[(١)].

---

(١) ذم الهوى، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، صححه وضبطه أحمد عبد السلام عطار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص١٨.

ويرى ابن الجوزي ﷺ أن الهوى هو ميل الطبع إلى ما يتوافق مع رغبات الإنسان، وهو ميل طبيعي يعزز بقاء الإنسان واستمراره، لأنه يدفعه إلى تناول الطعام والشراب والتكاثر. هذا الميل، حسب ابن الجوزي، هو ما يستجلب للإنسان ما يفيده، فالهوى، في تعريفه الأعمق، هو السير وراء ما تهوى النفس وتشتهي دون تحكيم العقل أو الرجوع إلى الشرع أو تقدير العواقب. عندما يتعلق الأمر بتقييم الإساءات والردود عليها، يظهر تأثير الهوى بوضوح في كيفية تفاعل الأفراد مع المواقف المختلفة.

على سبيل المثال، قد يميل الشخص إلى الرد بشكل أقوى على الإساءات التي تصدر من أشخاص لا يحبهم، بينما يخفف من ردود فعله تجاه الإساءات التي تأتي من أشخاص يحبهم أو يفضلهم. هذا التأثير يجعل تقييم الإساءات غير موضوعي ويعتمد على مشاعر الشخص تجاه المسبب وليس على موضوعية الموقف ذاته، إضافة إلى ذلك، يمكن أن يؤثر الهوى على كيفية تعامل الشخص مع الإساءات. فعندما يكون الشخص مدفوعاً بهواه، قد يتجنب الرد بشكل صحيح أو قد يبالغ في ردود فعله بناءً على مشاعره الشخصية وليس على المبادئ العادلة. وعليه، فإن الهوى يمكن أن يؤدي إلى تحيز واضح في تقدير الإساءات والردود عليها، مما يستدعي ضرورة التزام الشخص بالمعايير الموضوعية والشرعية في تقييم المواقف وتحديد الردود المناسبة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «وصاحب الهوى يعميه الهوى

ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه»[١].

فالهوى الشخصي يؤثر بشكل كبير على قدرة الفرد على تقييم الإساءات والردود بموضوعية، حيث يميل الشخص إلى تفضيل ما يوافق هواه الشخصي، مما يؤدي إلى ردود أفعال غير متوازنة وغير عادلة. هذا التحيز الشخصي يتسبب في تجاهل ما يرضي الله ورسوله، ويعيق القدرة على اتخاذ قرارات عادلة، ويؤدي إلى تفاعلات مبنية على الميول الشخصية بدلاً من المبادئ الشرعية.

❑ تتأثير الهوى الشخصي في تقييم النصوص الشرعية والقضايا الفقهية:

يؤثر الهوى الشخصي على كيفية تعامل الأفراد مع النصوص الشرعية والآراء الفقهية. يطرح الكاتب تساؤلات متعددة حول مدى تأثير الميول الشخصية على حكم الأفراد تجاه الآيات والأحاديث والتفسيرات، وكيف أن التقدير الشخصي يمكن أن يختلف بناءً على تفضيلاتهم ومواقفهم الشخصية تجاه الأفراد المعنيين.

فالشخص قد ينجذب إلى تأييد آية أو حديث يتماشى مع آرائه المسبقة أو مع موقف إمامه المفضل، بينما يتجاهل أو يقلل من أهمية النصوص التي

(١) منهاج السنة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمه الحراني، تحقيق د محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٠٦هـ، ٥/ ٢٥٦.

تتناقض مع هذه الآراء. هذا التحيز يمكن أن يؤثر على مدى الموضوعية في تقييم النصوص والتفسيرات.

يسأل الكاتب عما إذا كان الفرد يميل إلى تفضيل رأي إمامه أو تفضيل أحد الفتاوى بناءً على ميول شخصية أو ارتباط عاطفي، حتى وإن لم يكن لديه دراية كاملة بصحة الأدلة أو ضعفها.

فالمواقف الشخصية تجاه الأفراد يمكن أن تؤثر على الحكم على أفعالهم وقراراتهم. مثلاً، قد يكون الشخص أكثر تسامحاً أو صرامة في تقييم أفعال أصدقائه أو أعدائه، وذلك بناءً على مشاعره تجاههم.

ولقد حذر السلف من اتباع الهوى المذموم من خلال قول معاوية رضي الله عنه «المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى»[1].

يشير هذا القول إلى أن المروءة الحقيقية تكمن في تجاوز الرغبات الشخصية والانتصار على الهوى. يتضح من هذا القول إن الهوى يمكن أن يقود الإنسان إلى التهاون في تطبيق النصوص الشرعية بموضوعية، مما يسبب انحرافًا عن الصراط المستقيم في التقييم والتطبيق.

وما ذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[2].

---

(١) ذم الهوى، ابن الجوزي، ص ٢٥.

(٢) شعب الإيمان، أبو بكر بن الحسين البيهقي، تحقيق المقيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٧/ ٣٩٩.

يشير هذا القول إلى أن الهوى يمكن أن يحرف الشخص عن الحق ويؤثر سلبًا على قدرته على تحقيق العدالة في القضايا الفقهية. الهوى يجعل الشخص يميل إلى تبرير أفعاله أو تبني آراء تتماشى مع رغباته الشخصية بدلاً من الالتزام بالحق الشرعي.

ويحذر أبو قلابة ﵀ من مجالسة أهل الأهواء بقوله: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[1].

في هذا التحذير، نجد دعوة واضحة للابتعاد عن التأثيرات السلبية لأولئك الذين يتبعون أهواءهم، حيث يمكن أن تؤدي مجالستهم إلى لبس الحقائق والتشويش على الفهم الصحيح للنصوص الشرعية.

وقال ابن عون ﵀: إذا غلب الهوى القلب؛ استحسن الرجل ما كان يستقبحه.

وقال ابن الجوزي ﵀: اتباع الهوى يُغلق على العبد أبواب التوفيق، ويفتح له أبواب الخذلان، فتراه يلهج بأن الله لو وَفَّق لكان كذا وكذا، وقد سدَّ على نفسه طُرق التوفيق باتِّباع هواه.

❑ الواجب على العالم في مواجهة الهوى وتحقيق الحق:

ليس من الممكن أن يُطلب من العالم أن يكون خالياً تماماً من الهوى،

---

(١) سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١/ ١٢٠، ج٣٩١،

إذ إن هذا يتجاوز قدرة البشر. ولكن، يقع على عاتق العالم واجب كبير في تفحص نفسه ومعرفة هواه، ثم توخي الحذر منه. يتعين على العالم أن يسعى جاداً للتفريق بين الحق والهوى، ويحرص على أن يكون حكمه مبنياً على الحق بغض النظر عن تأثير الهوى. إذا ظهر له أن الحق يتناقض مع هواه، يجب عليه تفضيل الحق على هواه الشخصي. يُعبر عن هذه المسؤولية ما رواه النووي في «الأربعين»، حيث قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»، وهو ما يدل على أهمية اتباع الحق دون تأثير الهوى. ويتم ذلك نت خلال الاعتصام بكتاب الله ومنهجه.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله مبيناً معنى الاعتصام بكتاب الله: «وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم، وكشوفاتهم، ومواجيدهم، فمن لم يكن كذلك فهو منسل من هذا الاعتصام، فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علماً وعملاً، وإخلاصاً، واستعانة، ومتابعة، واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة»[١].

في ضوء قول الإمام ابن القيم رحمه الله حول الاعتصام بكتاب الله، يتضح أن الواجب على العالم هو أن يُعلي من شأن التحكيم بالكتاب والسنة فوق آراء الرجال وأهوائهم، يشدد الإمام على أن الاعتصام بالدين يتطلب الانصياع الكامل لما جاء في النصوص الشرعية، دون الانجرار وراء معايير بشرية أو أذواق شخصية. يتعين على العالم أن يلتزم بالحق كما هو مبيَّن في الكتاب

(١) مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦م، ٢/ ٣٢٣.

والسنة، وأن يسعى لإخلاص النية في العمل، والاستعانة بالله، ومتابعة ما أمر به، دون تأثر بالهوى أو المقاييس الذاتية. بذلك، يتحقق التوازن والعدالة في التعامل مع النصوص الشرعية وتقديم الفتاوى، مما يضمن أن تكون الأحكام والتفسيرات متوافقة مع ما يرضي الله ويخدم المصلحة العامة للدين.

وقال الشاطبي ﷺ في الموافقات: كُلُّ مَوْضِعٍ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ الْهَوَى، فَإِنَّمَا جَاءَ بِهِ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ لَهُ وَلِمُتَّبِعِيهِ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْمَعْنَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَا ذَكَرَ اللَّهُ الْهَوَى فِي كِتَابِهِ إِلَّا ذَمَّهُ» فَهَذَا كُلُّهُ وَاضِحٌ فِي أَنَّ قَصْدَ الشَّارِعِ الْخُرُوجَ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى، والدخول تحت التعبد للمولى. انتهى.

وقال الشّنقيطيّ ﷺ في أضواء البيان: إنّ الواجب الّذي يلزم العلم به أن يكون جميع أفعال المكلّف مطابقة لما أمره به معبوده ﷻ، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع ما يستحقّه عليه خالقه من العبادة والطّاعة إلى هواه. انتهى.

في ضوء ما قاله الشاطبي وابن عباس ﷺ والشّنقيطي، يتضح أن الواجب على العالم في مواجهة الهوى وتحقيق الحق هو الابتعاد التام عن اتباع الهوى الذي ذمه الشرع، الشاطبي يشير إلى أن كل ذكر للهوي في الكتاب والسنة يأتي في سياق الذم والتحذير، مما يبرز ضرورة تجنب الهوى في فهم النصوص الشرعية وتطبيق الأحكام. كذلك، يؤكد الشّنقيطي على أن

جميع أفعال المكلف يجب أن تتماشى مع ما أمر به الله، وأن متابعة الهوى تؤدي إلى تحويل العبادة والطاعة من حق الله إلى تحقيق ما يريده الهوى الشخصي. لذا، على العالم أن يتحلى بالقدرة على تجاوز الهوى والالتزام الصارم بالنصوص الشرعية لضمان تحقيق الحق والعدل.

٥ التفكر في النقص والرجوع إلى الحق

النص

يستحضر أنه على فرض أن يكون فيما نشأ عليه باطل، لا يخلو عن أن يكون قد سلف منه تقصير أو لا، فعلى الأول إن استمر على ذلك كان مستمرا على النقص، ومصرا عليه، ومزدادًا منه، وذلك هو نقص الأبد وهلاكه، وإن نظر، فتبين له الحق، فرجع إليه، حاز [٢/ ١٩٩] الكمال، وذهبت عنه معرة النقص السابق؛ فإن التوبة تجبُّ ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البَقَرَةِ:٢٢٢]، وفي الحديث: «كلكم خطاؤون وخير الخطائين التوابون»[١].

وأما الثاني، وهو ألا يكون قد سبق منه تقصير، فلا يلزمه بما تقدم منه نقص يُعاب به البتة، بل المدار على حاله بعد أن ينبه، فإن تنبه وتدبر فعرف الحق فاتبعه فقد فاز، وكذلك إن اشتبه عليه الأمر، فاحتاط، وإن أعرض ونفر، فذلك هو الهلاك.

---

(١) المصنف، ابن أبي شيبة، ١٣/ ١٨٧؛ الترمذي، (٢٤٩٩)؛ الشعب، البيهقي، (٧١٢٧) من حديث أنس بن مالك بلفظ: كل بني آدم خطاء..... وإسناده حسن.

التعليق

❑ معالجة النقص السابق:

يجب على الفرد أن يتفكر في مسألة النقص والرجوع إلى الحق بعمق. إذا كان قد نشأ على معتقدات أو أفعال خاطئة، فقد يكون قد ارتكب تقصيراً في البداية. في هذه الحالة، إذا استمر في هذا الخطأ دون محاولة لتصحيحه، فإنه سيبقى في حالة نقص دائم وربما يؤدي إلى هلاكه. لكن إذا انتبه وعرف الحق وتاب، فإن التوبة تمحو الخطأ السابق، ويبدأ من جديد بشكل خالٍ من النقص، كما قال الله في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البَقَرَةِ:٢٢٢]، وفي الحديث: «كلكم خطاؤون وخير الخطائين التوابون».

ومعنى التوبة الرجوع إلى الله بترك الذنب الكبير أو الصغير، والتوبة إلى الله مما يعلم من الذنوب ومما لا يعلم، والتوبة إلى الله من التقصير في شكر نعم الله على العبد، والتوبة إلى الله مما يتخلل حياة المسلم من الغفلة عن ذكر الله ﷻ عن الأغر المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ، يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرة رواه مسلم[١].

قال ابن حجر رحمه الله في تعريف التوبة هي «ترك الذنب لقبحه والندم على فعله والعزم على عدم العود، ورد المظلمة إن كانت، أو طلب البراءة من

(١) صحيح مسلم، (٢٧٠٢).

صاحبها»[١].

وقد أكد الإمام النووي ﵀ على وجوب التوبة بقوله: «واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة»[٢].

وقال القرطبي ﵀: «واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان»[٣].

قال ابن القيم ﵀ في الكلام على تفسير التوبة المطلقة: وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدمي فلابد من أمر رابع وهو التحلل منه[٤].

يوضح ابن القيم ﵀ أن التوبة الحقيقية لا تقتصر على مجرد العزم على عدم العودة إلى الذنب والإقلاع عنه والندم عليه، بل تشمل أيضًا التحلل من الحقوق والظلمات التي قد تكون مرتبطة بالذنب، خاصة إذا كان الذنب متعلقًا بحقوق الآخرين، التوبة الفعّالة تتطلب من الفرد أن يعترف بتقصيره، ويعود إلى الحق ليس فقط من خلال تغيير سلوكه ولكن أيضًا عبر إصلاح ما يمكن إصلاحه من علاقاته والتزاماته.

فإذا كان الإنسان قد نشأ على باطل، وكان هناك تقصير سابق، فإن التوبة

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ٢٣/ ١٢٠.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب التوبة، باب الحض على التوبة والفرح بماء ١٧/ ٢١٨.
(٣) الجامع لاحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٦٠، ٩/ ١٢٩.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ١٦٩.

تعني أكثر من مجرد التوقف عن ارتكاب الخطأ؛ إنها تتطلب مراجعة كاملة للأفعال السابقة والاعتراف بالخطأ وتصحيح المسار. في حالة عدم وجود تقصير سابق، يكمن الواجب في متابعة الحق بعد أن ينبه إليه. إذا استجاب الفرد واتبعه، فهو في الطريق الصحيح، أما إذا تجاهله، فإنه يبقى في حالة من الهلاك والضلال، يشير ابن القيم إلى أهمية التوبة الشاملة التي تتجاوز التصحيح السطحي إلى اعتراف عميق وتصحيح فعلي للأخطاء، مما يتطلب من الفرد التفكر في نقصه والتزامه بالرجوع إلى الحق بصدق وجدية.

❑ فورية التوبة:

والمقصود بالفورية هي: المبادرة في التوبة بلا تأخير ولا تسويف؛ لأن الإنسان لا يملك غده أو بعده إن أجل ذلك، والتسويف من الشيطان ليبعد الإنسان عن أعمال الخير.

ومما يثبت وجوب فورية التوبة في الحال قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عِمۡرَان:١٣٥].

إن فورية التوبة تعني أن الشخص يجب أن يسعى إلى التوبة بشكل سريع وبذل الجهد لتصحيح أي خطأ أو تقصير وقع فيه، سواء كان ذلك ناتجًا عن نشأته على باطل أو تقصير سلف منه. إذا كان الشخص قد نشأ في بيئة خاطئة أو مارس أفعالاً غير صحيحة، فيجب عليه أن يعترف بهذا الباطل

ويعمل على تصحيحه فورًا، إذا استمر الشخص على الخطأ دون محاولة لتصحيح مساره، فإنه سيظل في حالة من النقص والتقصير، مما يؤدي إلى هلاكه. من ناحية أخرى، إذا بادر بالتوبة وراجع نفسه، وعاد إلى الحق، فإن التوبة تُبطل ما سبق من الذنوب وتمنحه حالة جديدة من الكمال. كما ذكر في القرآن الكريم، فإن الله يحب التوابين والمتطهرين، وهذا يعزز أهمية التوبة الفورية.

ومما يؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ: «إتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» [(١)].

وقد جاءت أقوال العلماء مؤيدة فورية التوبة والتعجيل بها، فقد قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «إن المبادرة إلى التوبة من الذنوب فرض على الفور، لا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبتة من تأخير التوبة» [(٢)].

وقال الإمام النووي رحمه الله: «واتفقوا على انها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها» [(٣)].

وقال الغزالي رحمه الله «أما وجوبها على الفور فلا ريب فيه، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات...» [(٤)].

---

(١) الترمذي، جامع الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، ٦/ ١٠٤، رقم الحديث ٢٠٥٣.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٢٧٢-٢٧٣.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب الحض على التوبة والفرح بها، ١٦/ ٢٠١٨.

(٤) الاحياء، الغزالي، ٤/ ٧.

❑ تحقيق الصلاح بعد التنبيه على الخطأ:

أما إذا لم يكن هناك تقصير سابق، فلا يُعاب عليه ما مضى، التركيز هنا يكون على كيفية تعامله مع الأمور بعد أن يُنبه، وإذا تنبه الشخص وتفكر بعقلانية، وأدرك الحق فاتبعه، فهو يعتبر قد فاز وحقق الصلاح، أما إذا لم يكن واضحًا له الأمر أو اشتبه عليه، فيجب عليه أن يتحرى ويأخذ احتياطاته لتجنب الخطأ. لكن إذا أعرض الشخص عن الحق وأظهر نفورًا منه، فإن ذلك يعني وقوعه في الهلاك، لأنه لم يُحسن التعامل مع التنبيه أو المعلومة الجديدة.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله ت٧٩٥هـ في فتح الباري (٦/ ٤٠٦): «إن أئمة الإسلام المجتمع عليهم إنما قصدوا اتباع ما ظهر لهم من الحق وسنة رسول الله ﷺ، لم يكن لهم قصد في غير ذلك رضى الله عنهم».

إذا أدرك الشخص الحق بعد التنبيه واتبعه، فإنه بذلك يحقق الصلاح ويُعتبر قد فاز، حيث أن التوبة والتغيير من النقص السابق يكونان ممكنين عندما يتبع الحق. أما إذا كان الأمر مشتبهًا عليه، فيجب عليه أن يتحرى ويتخذ احتياطاته لتصحيح المسار، من جهة أخرى، إذا تجاهل الشخص التنبيه أو رفض الحق، فإن ذلك يشير إلى عدم صلاحه، إذ يظل متمسكًا بالخطأ ويعرض نفسه للهلاك. بالتالي، فإن النجاح في تحقيق الصلاح يعتمد على الانفتاح على الحق والقدرة على التغيير بعد التنبيه.

٦
كل نفس بما كسبت رهينة

النص

يستحضر أن الذي يهمه ويُسأل عنه هو حاله في نفسه، فلا يضره عند الله تعالى ولا عند أهل العلم والدين والعقل أن يكون معلمه أو مربيه أو أسلافه أو أشياخه على نقص والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يسلموا من هذا، وأفضل هذه الأمة أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، وكان آباؤهم وأسلافهم مشركين، هذا مع احتمال أن يكون أسلافك معذورين إذا لم ينبهوا ولم تقم عليهم الحجة، وعلى فرض أن أسلافك كانوا على خطأ يؤاخذون به، فاتباعك لهم وتعصبك لا ينفعهم شيئًا بل يضرهم ضررًا شديدا، فإنه يلحقهم مثل إثمك ومثل إثم من يتبعك من أولادك وأتباعك إلى يوم القيامة، كما يلحقك مع إثمك مثل إثم من يتبعك إلى يوم القيامة، أفلا ترى أن رجوعك إلى الحق هو خير لأسلافك على كل حال؟

التعليق

❑ المسئولية شخصية محضة:

ينبغي للإنسان أن يتفكر في أن المسؤولية عن أفعاله وتصوراته هي مسؤولية شخصية بالكامل. لا يبرر للأفراد تقصيرهم أو أخطائهم بالاستناد إلى تصرفات أو نقص في أسلافهم أو معلميهم. حتى وإن كانوا قد أساءوا، فإن هذا لا يعفي الشخص من المسؤولية عن تصحيح مساره الشخصي. الأفراد يتحملون مسؤولية أفعالهم الخاصة ويحاسبون على اختياراتهم، لذا فإن الرجوع إلى الحق والتزامه هو الطريق الأمثل لتحمل المسؤولية بشكل صحيح وتحقيق الكمال الشخصي.

قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطُّور:٢١]، و﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المُدَّثِّر:٣٨]، و﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإِسْرَاء:١٥]، و﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لُقْمَان:٣٣] ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غَافِر:١٧].

فالقرآن الكريم إذن لا يواخذ البريء بالمذنب ويعتبر ذلك ظلما مضادا للشريعة الربانية العادلة.

في الشريعة الإسلامية، تُعد المسؤولية الشخصية أساسًا جوهريًا، حيث يُعتبر التكليف فرديًا تمامًا. هذا يعني أن كل شخص سيسأل ويحاسب

بمفرده يوم القيامة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مَرْيَم:٩٥].

وتؤكد النصوص الشرعية على هذه المسؤولية الشخصية من خلال توجيه الخطاب بصيغة فردية، مثل قوله: «مَنْ رَآى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ»، و«لَئِنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»، و«لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ».

في إطار التأمل في المواقف والتصورات الشخصية، من الضروري أن يستحضر الفرد أن المسؤولية الملقاة على عاتقه تتعلق بحاله الشخصي وتصرفاته، وليس بمسؤولية تصرفات من سبقوه. مهما كان مستوى النقص في أسلافه أو مشايخه، فإن هذا لا يعفيه من المساءلة عن أفعاله وأحكامه.

وتاريخ الأنبياء والصحابة، رغم قدسيتهم وفضلهم، يظهر بوضوح أن حتى أفضل الناس لم يسلموا من التحديات والأخطاء. على سبيل المثال، أصحاب النبي محمد ﷺ كانوا في البداية من المشركين قبل أن يعتنقوا الإسلام.

إذا كان أسلاف الإنسان قد خالفوا الحق، فهم مسؤولون عن أفعالهم، ولا يتحمل أبناؤهم أو أتباعهم إثمهم. بالعكس، اتباع الخطأ والتعصب له لا ينفع أسلافه بل يزيد من أعبائهم بقدر ما يلحقهم من إثم.

العودة إلى الحق والتحرر من التأثيرات السابقة ليس فقط يحقق الفائدة الشخصية للفرد، بل يمكن أن يكون له تأثير إيجابي على أسلافه في الآخرة.

فإصلاح الذات والتوبة من الأخطاء يمكن أن يعكس الخير على الأجيال المقبلة ويكون له ثواب عظيم.

❑ البعد عن القدوة السيئة والتحذير منها:

القدوة السيئة هي: الاقتداء بأهل الباطل، ومتابعتهم، والتأسي بهم في فعل السيئات وترك الحسنات،[١] وقد كان تقليد الآباء سببًا رئيسًا في رد دعوات الأنبياء، وهو تقليد مذموم يقود صاحبه إلى الأخذ بآراء وأقوال الرجال، والإعراض عن الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأهل الكفر جعلوا أصل احتجاجهم على عدم تصديق ما جاءت به الرسل، أنه لم يكن عليه أسلافهم، ولا عرفوه منهم؛ لذا ذمَّه الله ﷻ في كتابه الكريم؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزُّخْرُف:٢٣]. فالكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه «لا بطريق عقلي ولا بدليل نقلي، ثم بيَّن أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين»[٢].

فالشخص يجب أن يتحمل مسؤولية تصرفاته الخاصة بغض النظر عن عيوب أو نقص قد يكون لدى من قبله من معلمين أو أسلاف. حتى وإن كان هؤلاء قد أخطأوا، فإن اتباعهم أو التعصب لهم لن يفيدهم بل قد يضرهم، إذ

(١) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد، ١١/ ٥٣٠٠.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٧/ ٦٢٨.

يلحقهم إثم من يتبعهم.

فإن البُعد عن القدوة السيئة، حتى وإن كانوا من أسلاف الشخص أو معلميه، هو جزء من المسؤولية الفردية. فالأفراد لا يتحملون مسؤولية أخطاء الآخرين، بل عليهم أن يتخذوا خطوات فعالة لتصحيح مسيرتهم الخاصة. الرجوع إلى الحق وتصحيح المسار هو السبيل الأمثل لتفادي الإثم وتأمين الفلاح، ليس فقط للمرء نفسه، بل أيضًا فيما قد ينجم عن تصرفاته من تأثير على من يتبعه.

وهكذا يشجع الإسلام الأفراد على التركيز على تصحيح مسيرتهم الخاصة وعدم التبرير للأخطاء بناءً على قدوات سيئة أو تقليد غير صحيح، ليكونوا في مأمن من العقاب ولضمان النجاح في الآخرة.

٧ ثمار إيثار الحق وعاقبة اتباع الهوى

النص

يتدبر ما يُرجَى لِمُؤثر الحقِّ من رضوان رب العالمين، وحسن عنايته في الدنيا، والفوز العظيم الدائم في الآخرة؛ وما يستحقه متبع الهوى من سخطه ﷻ، والمقت في الدنيا والعذاب الأليم الخالد في الآخرة، وهل يرضى عاقل لنفسه أن يشتري لذة اتباع هواه بفواتِ حُسن عناية رب العالمين وحرمان رضوانه والقرب منه والزلفى عنده والنعيم العظيم في جواره، وباستحقاق مقته وسخطه وغضبه وعذابه الأليم الخالد؟ لا ينبغي أن يقع هذا حتى من أقل الناس عقلا، سواء أكان مؤمنا موقنا بهذه النتيجة، أم ظانا لها، أم شاكا فيها، أم ظانا لعدمها؛ [٢/ ٢٠٠] فإن هذين يحتاطان، وكما أن ذلك الاشتراء متحقق ممن يعرف أنه متبع هواه، فكذلك من يسامح نفسه، فلا يناقشها ولا يحتاط.

التعليق

☐ التفكر في عاقبة إيثار الحق وفضل الله على من اختار طريقه:

الحق هو ما جاء به النبيون من ربهم وأمروا بتبليغه، ويشمل العقيدة والشريعة التي أرسلوا بها. يتضح هذا المفهوم في حديث النبي ﷺ الذي يؤكد على أن الله حق، ووعده حق، والجنة والنار حق، والساعة حق، وكذلك الأنبياء وشرائعهم. الالتزام بالحق يعني الإيمان بالله وتوحيده، واتباع ما جاء به الأنبياء، وهو السبيل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام في الليل يتهجد قال: اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق وعدك حق، ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك»[١].

ومن صفات أهل الإيمان إيثار الحق والاحتفاء به والانقياد له والدعوة إليه، إذ أن الذي لا ينقاد للحق لا يحكم له بالإيمان، والنبي ﷺ حياته كلها إيثار للحق فهذا هو النبي ﷺ يأمر بالهجرة

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، باب التهجد ٣/ ٣٣٢، رقم ١٠٥٣

من مكة إلى المدينة ويترك وطنه وهو أحب البلاد إليه ويلبي أمر الله سبحانه وتعالى: وعندما يخرج منها، يقبل عليها ويقول: والله إنك لأحب البلاد إلي لولا أهلك أخرجوني ما خرجت».

من هنا يجب التأمل في الثمار العظيمة التي يجنيها من يختار طريق الحق ويقدمه على هوى النفس ومغريات الدنيا. عندما يؤثر الإنسان الحق، فإنه ينال رضا الله وعنايته في الدنيا، والتي قد تتجلى في الطمأنينة، البركة، وتوفيق الله في الأمور. وفي الآخرة، ينتظره الفوز العظيم والنجاة الدائمة. هذا النوع من التفكر يجعل الإنسان مدركًا لقيمة الثبات على الحق، ويحفزه على مواجهة التحديات والصبر على المكاره، لأنه يعلم أن ما ينتظره من رضا الله وجزائه خيرٌ وأبقى من كل ما قد يفوته في الدنيا.

وإيثار الحق يتجلى في التمسك بقول الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مهما كانت الظروف والتحديات. الالتزام بالحق يعني تقديمه على المصالح الشخصية، وعدم التردد في نصرة الحق حتى لو كان ذلك على حساب النفس أو مواجهة الضغوط الاجتماعية. في الإسلام، يعد قول الحق واجباً حتى أمام الظالمين، كما جاء في الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». فإيثار الحق ليس مجرد فضيلة، بل هو واجب شرعي يحقق العدالة ويحافظ على المجتمع من الفساد والانحراف.

فعلى الإنسان أن يقول الصدق، وأن ينطق بالحق، ولو كره الناس ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لُقْمَان:١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمۡرَان:١٨٧]. وقوله عن المؤمنين: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ [المَائـِدَة:٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ [الأَنۡعَام:١٥٢].

وقد كان النبي ﷺ يبايع أصحابه على ذلك، ففي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم.

قال النووي رحمه الله في شرحه: معناه: نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر في كل زمان ومكان، الكبار والصغار، لا نداهن فيه أحدًا، ولا نخافه إلا هو، ولا نلتفت إلى الأئمة، ففيه القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأجمع العلماء على أنه فرض كفاية، فإن خاف من ذلك على نفسه أو ماله أو على غيره، سقط الإنكار بيده، ووجبت كراهته بقلبه، هذا مذهبنا ومذهب الجماهير، وحكى القاضي هنا عن بعضهم أنه ذهب إلى الإنكار مطلقاً في هذه الحالة وغيرها.

❑ عاقبة اتباع الهوى والتحذير من عواقبه:

هناك خطر كبير في اتباع الهوى والانسياق وراء شهوات النفس، حيث يؤدي ذلك إلى سخط الله ومقته في الدنيا، ثم العذاب الأليم في الآخرة. وتطرح الفقرة سؤالًا استنكاريًا حول مدى معقولية أن يضحي الإنسان برضا

الله وعنايته لأجل لذة عابرة أو اتباع هوى لا يدوم. من غير العقلاني أن يختار الإنسان مثل هذه التجارة الخاسرة، سواء كان على يقين تام بعاقبتها أو حتى كان لديه شكوك. حتى لو ظنّ الإنسان بعدم وجود تلك العواقب، فالعقل يدعوه إلى الاحتياط وعدم المخاطرة بمصيره الأبدي. الفقرة تبرز أهمية اليقظة في مراقبة النفس وتجنب التساهل في اتباع الأهواء، لأن الإغفال عن ذلك يؤدي إلى نتائج وخيمة لا محالة.

إن النفس بحاجة إلى مجاهدة، ومجاهدتها ليست أمرا سهلا إذا تربت على نزواتها وشهواتها، قرب شهوة ساعة أورثت صاحبها شقاء دهر في الدنيا وعذاب نار في الآخرة، وقد حذر النبي ﷺ من اتباع هوى النفس، فقال عليه الصلاة والسلام: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[1].

فمن أرخى لنفسه هواها وتتبع مشتهاها، صار عبدا سلوكاً لها، تأمره ولا يأمرها، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفُرْقَان:٤٣].

وفي أية مشابهة لها في نظمها قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجَاثِيَة:٢٣].

(١) مسند أحمد، ٤/ ١٢٤؛ سنن ابن ماجة، رقم (٤٢٦٠) الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب صفة القيامة، باب (٥)، رقم (٢٤٥٩) (٤/ ٦٣٨)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».وفيه: أبو بكر بن أبي مريم وفيه ضعف.

قال قتادة ﵀: «أرأيت من اتخذ إلهه هواه قال: كلما هوي شيئا ركبه، وكلما اشتهى شيئا أتاه»[(١)].

وحذر ﷺ أن يكون الهوى قائدا المرء، فقال ﷺ: «إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى»[(٢)].

ومن الأقوال المأثورة ما نقله الأصفهاني ﵀: «الرأي نائم والهوى يقظان، فإذا هوى العبد شيئا نسي الله،... العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع، كم من عقل أسير في يدي هوى أمير»[(٣)].

❑ ومن عواقب اتباع الهوى:

أ- استحقاق العذاب الأليم:

اتباع الهوى يقود الإنسان إلى الضلال والانحراف عن منهج الله، مما يجعله مستحقًا للعذاب الأليم في الدنيا والآخرة. يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣]، فمن يتبع هواه ينحرف عن سبيل الهداية، ويستحق بذلك العقوبة الإلهية التي تنتظره في الآخرة، حيث يجد نفسه في مواجهة عذاب دائم لا ينقطع، نتيجة

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٥/ ١٥٠؛ تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٠.
(٢) المسند (٤/ ٤٢٠-٤٢٣) عن أبي برزة الأسلمي ﵁؛ وفي مجمع الزوائد ٧/ ٣٠٦، قال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».
(٣) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الأصفهاني، تحقيق: عمر الطباع، دار القلم، بيروت، ١٩٩٩م، ١/ ٣٠.

انحرافه عن الحق واتباعه أهواء نفسه.

قال تعالى مخاطبا داود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص:٢٦].

في هذه الآية الكريمة أمر لداود عليه السلام أن يحكم بين الناس بالحق، وأن لا يحيد عنه بهوى من نفسه وإلا ترتب على ذلك ضلال، وعذاب أليم.

قال الزركشي رحمه الله: «مقدمتان ونتيجة، لأن اتباع الهوى يوجب الضلال، والضلال يوجب سوء العذاب، فأنتج أن اتباع الهوى يوجب سوء العذاب»[(١)].

ب-استحقاق سخط الله:

من أخطر عواقب اتباع الهوى هو استحقاق سخط الله جل جلاله. فالهوى يؤدي إلى الابتعاد عن طريق الحق والانغماس في الباطل، مما يستوجب غضب الله وسخطه. يقول الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [الأعراف:١٧٥]، وهذا نتيجة اتباع الهوى. ومن استمر على ذلك، فإنه يعرض نفسه لسخط الله ومقته، مما يقود في النهاية إلى الخسران في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ٣/ ٤٧٠.

مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا﴾ [البَقَرَة:١٢٠].

هذا خطاب للنبي ﷺ بعدم اتباع أهواء أهل الكتاب، والفرق بين الولي والنصير أن الولي قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبيا عن المنصور، فيكون بينهما عموم من وجه، والمقصود ما لك من الله من ولي ولا نصير يدفع عنك عقابه، وهو جواب لئن[١].

ج-الختم على القلب:

من أشد العواقب التي تصيب من يتبع الهوى هي الختم على القلب، وهو ما يمنع الإنسان من إدراك الحق والاهتداء إليه. يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجَاثِيَة:٢٣]، فالختم على القلب هو نتيجة طبيعية لاستمرار الإنسان في اتباع شهواته وأهوائه دون الاستجابة للحق، مما يجعله غير قادر على سماع الهدى أو رؤية النور، فيبقى في ظلمات الضلال بعيداً عن الهداية والحق.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [مُحَمَّد:١٦].

أي إنهم لا يعقلون الخير، والمعنى أن الله طبع على قلوبهم، فجعلها

---

(١) انظر أنوار التنزيل البيضاوي، ١/ ٣٨٠، ٣٩٣.

بحيث لا يخرج منها ما فيها من الكفر، ولا يدخلها ما ليس فيها من الإيمان، وحاصل الختم والطبع خلق الظلمة والضيق في صدر العبد، فلا يؤمن ما دامت تلك الظلمة في قلبه[1].

د-الحرمان من الهداية:

إن من أعظم عواقب اتباع الهوى هو الحرمان من الهداية، كما يتجلى في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [الأَنْعَام:٥٦]، يوضح الله في هذه الآيات أن اتباع الهوى يؤدي إلى الضلال وفقدان الهداية. فالإنسان الذي يسير خلف أهوائه يفقد القدرة على التمييز بين الحق والباطل، مما يبعده عن طريق الهداية، ويجعله عرضة للضياع. وتؤكد الآية أن الهداية تأتي من الله، ولا يمكن أن ينالها من يتبع أهواءه بدلاً عن اتباع الحق.

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ١٤.

٨ مجاهدة النفس ومخالفة الهوى في سبيل الحق

النص

يأخذ نفسه بخلاف هواها فيما يتبين له، فلا يسامحها في ترك واجب أو ما يقرب منه، ولا في ارتكاب معصية أو ما يقرب منها، ولا في هجوم على مشتبه، ويروضها على التثبت والخضوع للحق، ويشدد عليها في ذلك حتى يصير الخضوع للحق ومخالفة الهوى عادة له.

التعليق

❑ تربية النفس على مخالفة الهوى:

يجب على الإنسان أن يأخذ نفسه بخلاف هواها إذا تبين له الحق، فلا يتساهل في أداء الواجبات أو يقترب من المعاصي، بل يجاهد نفسه لترك ما يميل إليه الهوى إذا كان مخالفًا لما أمر الله به، ترويض النفس على التثبت والتروي قبل اتخاذ القرارات يساعد على تجنب الوقوع في المشتبهات أو التهور في التصرفات.

وبتم ذلك من خلال:

أ-الاستقامة على الشرع:

الاستقامة على الشرع هي وسيلة فعّالة لتربية النفس على مخالفة الهوى، حيث تدفع الفرد للالتزام بتوجيهات الدين وأحكامه حتى في مواجهة ميول النفس ورغباتها. قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [الشُّورَى:١٥]، أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله ﷻ(١).

فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به، ومع امتثال المأمور لا تفعل المحظور، فإنهما ضدان، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يُوسُف:٢٤]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحِجۡر:٤٢]، فعباد الله المخلصون لا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١١٠.

يغويهم الشيطان، لأنهم استقاموا على شرع الله، والغي خلاف الرشد، وهو اتباع الهوى[١].

فمن استعصم بالله تعالى عصم، ومن خصم حجب عن المعاصي، ومن استسلم إلى نفسه حجب عن الطاعة وغلبه الهوى، فسلك به سبيل الردى، واستحوذ عليه الشيطان فكان من الغاوين[٢].

ب-الصبر ومجاهدة النفس:

الصبر ومجاهدة النفس هما مفتاحان أساسيان لتربية النفس على مخالفة الهوى وتحقيق الاستقامة على الشرع. الصبر يعني التحمل والتزام الحق رغم الصعوبات والتحديات التي تواجه الفرد. يساعد الصبر على تجاوز مغريات الهوى والضغوط النفسية، ويعزز القدرة على الالتزام بالتعاليم الشرعية.

مجاهدة النفس تتضمن جهدًا مستمرًا لمخالفة الهوى والتحكم في الرغبات والميول الشخصية. تتطلب مجاهدة النفس مقاومة الانحرافات وتطوير عادات إيجابية تتماشى مع القيم الدينية. قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف:٢٨].

---

(١) انظر: الزهد والورع والعبادة، ابن تيمية، تحقيق حماد سلامة، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٧هـ، ص٦٩.

(٢) انظر: حلية الأولياء، الأصبهاني، ٩/ ٢٩٠.

في هذه الآية ثلاثة سبل لحماية النفس من الهوى أولاها: الصبر، وثانيها: ملازمة الذاكرين أو العابدين، أو طلبة العلم أو المصلين، وثالثها: مفارقة مجالس الباطل وأهله.

أما الصبر، فإنه ﷺ أُمر في هذه الآية أن يحبس نفسه مع الذين يدعون ربهم، وذكر الغداة والعشي كناية عن الاستمرار على الدعاء في جميع الأوقات[١].

«فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى، فإذا كان مشركاً متبعا هواه لم يكن صابراً ولا شكورا فلا تكون الآيات نافعة له»[٢].

قال إبراهيم بن أدهم أحد العابدين: «أشد الجهاد جهاد الهوى من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها، وكان محفوظاً ومعافى من أذاها»[٣].

ج-تخويف النفس من الله:

تخويف النفس من الله كوسيلة لتربية النفس على مخالفة الهوى يتضمن الاستفادة من الوعي بعظمة الله وقدرته على العقاب لتهذيب النفس وتحفيزها على تقوى الله.

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٨١.

(٢) الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٣هـ، ص ١١٣.

(٣) حلية الأولياء، الأصبهاني، ٨/ ١٩.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النَّازِعَات:٤٠-٤١].

«أي خاف القيام بين يدي الله ﷻ، وخاف حكم الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردها إلى طاعة مولاها»[١].

و عن إبراهيم بن أدهم ؒ قال: «الهوى يردي، وخوف الله يشفي، واعلم أن ما يزيل عن قلبك هواك إذا خفت من تعلم أنه يراك»[٢].

د-استحضار عاقبة اتباع الهوى:

استحضار عاقبة اتباع الهوى هو وسيلة فعّالة لتوجيه النفس نحو الاستقامة ومخالفة نزعات الهوى. يتضمن هذا الاستحضار التأمل في النتائج السلبية التي يجرها اتباع الهوى

قال الذهبي ؒ[٣] يعظ أسير الهوى، ويذكره بما أعده الله له من العذاب:

«يا من أسره الهوى فما يستطيع له فكاكا، يا غافلا عن التلف وقد أدركه إدراكا، يا مغرورا بسلامته وقد نصب له الموت أشراكا، تفكر في ارتحالك وأنت على حالك فإن لم تبك فتباكا».

إن المرء لو تدبر الأذى الحاصل له بعد استجابته لهواه، وما حققه لنفسه من اتباعه الهوى فإنه سيجد أن حسرة اتباع الهوى وألمه وعاقبته تفوق

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤٧٠.

(٢) حلية الأولياء، الأصبهاني،٨/ ١٨؛ البيهقي في شعب الإيمان، رقم (٨٧٦)، ١/ ٥١١.

(٣) الكبائر، الذهبي، دار الندوة الجديدة، بيروت، ص١٦٣.

لذته التي سرعان ما تفنى.

قال ابن القيم رحمه الله: «إن العاصي دائماً في أسر شيطانه، وسجن شهواته، وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة»[1].

❑ التعود على الخضوع للحق:

من الضروري أن يتعود الإنسان على الخضوع للحق والالتزام به حتى يصير ذلك سلوكًا ثابتًا وعادةً راسخة في حياته. وذلك يتطلب التشدد في محاسبة النفس والتدريب المستمر على قبول الحق حتى لو كان على خلاف الهوى، لأن هذا هو السبيل إلى الوصول للرضا الإلهي والتوفيق في الدنيا والآخرة.

قال الله تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر:١٨].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: قوله ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ﴾ أي: حاسبوا أنفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَانْظُرُوا مَاذَا ادْخَرْتُمْ لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وَعَرْضِكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: اعْلَمُوا أَنَّهُ عَالِمٌ بجميع أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ لا تخفى عَلَيْهِ مِنكُمْ خَافِية ولا يغيب عنه من أموركم

---

(١) ابن القيم، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٥٣.

جليل ولا حقير[١].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حَاسِبُوا أنفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وزنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَن تُوزنُوا فَإِنْ أَهْوِنَ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسابِ غدًا أنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ تزنوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا تخفى مِنكُم خافية[٢].

وقال الْحَسَنُ البصري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القِيَامَة:٢]، لا يُلقى المؤمن إلا يُعاتب نَفْسَهُ مَاذَا أَرَدْتُ بكلمتي ماذا أردتُ بأكلتي ماذا أردت بشربتي والعاجز يمضي قدمًا لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ[٣].

وقال مَسْرُوق رحمه الله: إن المرء لحقيق أن يكُونَ لَهُ مَجَالِسٌ يَخْلُو فِيها فيذكر فيها ذُنُوبَهُ فَيَسْتَغفر منها[٤].

وقال مَيْمُونُ بنُ مهران رحمه الله: لا يَكُونُ العبد تقيا حَتَّى يُحَاسِب نفسه كما يُحاسب شريكه من أينَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ[٥].

أما قبول الحق فهو التزام القلب والعقل بالاعتراف بالحق وقبوله بدون تردد أو اعتراض.

يتجلى هذا المعنى في حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذَاقَ يَوْمًا طَعْمَ الإِيمَانِ مَن رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا

(١) تفسير ابن كثير، ٨/ ٧٧.
(٢) الزهد، أحمد بن حنبل، ص ٩٩-٦٣٣.
(٣) محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا، ص ٢٤، رقم٤.
(٤) الزهد، أحمد بن حنبل، ص ٢٨٣، رقم ٢٠٣٨.
(٥) سنن الترمذي، ٤/ ٢١٩.

وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا» (رواه مسلم).

قال ابن القيم رحمه الله في «إغاثة اللهفان» (١/ ١٤): «فالقلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقبول له».

وصاحب البصيرة إذا بان له الحق لم يلتفت إلى غيره، ولم يبال بقلة النصير والمعين، ولم يرتبك لكثرة المخالف والمناوئ، لعلمه الجازم أن الحق منصور ولو بعد حين، فلا يعظم في نفسه على الحق شيء، كما قال السحرة لفرعون حين عرفوا الحق واتَّبعوه: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [طه:٧٢].

٩ الأخذ بالأحوط

النص

يأخذ نفسه بالاحتياط فيما يخالف ما نشأ عليه، فإذا كان فيما نشأ عليه أشياء يرى أنه لا بأس بها، أو أنها مستحبة، وعلم أن من أهل العلم من يقول: إنها شرك أو بدعة أو حرام، فليأخذ نفسه بتركها حتى يتبين له بالحجج الواضحة صحة ما نشأ عليه، وهكذا ينبغي له أن ينصح غيره ممن هو في مثل حاله، فإن وجدت نفسك تأبى ذلك، فاعلم أنّ الهوى مستحوذ عليها، فجاهدها.

واعلم أن ثبوت هذا القدر على المكلف -أعني أن يثبت عنده أنَّ ما يدعى إليه أحوط مما هو عليه- كاف في قيام الحجة عند الله ﷻ، وبذلك قامت الحجة على أكثر الكفار، فمن ذلك المشركون من العرب، لم يكن في دينهم الذي كانوا عليه تصديق بالآخرة، وإنما يدعون آلهتهم ويعبدونها للأغراض الدنيوية، مع علمهم أن مالك الضر والنفع هو الله ﷻ وحده، ولذلك كانوا إذا وقعوا في شدّةٍ دَعوا الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لُقْمَان:٣٢]**، وقال تعالى:**﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإِسْرَاء:٦٧].

وكانوا يرون من هو على خلاف دينهم لا يظهر تفاوت بينه وبينهم في أحوال الدنيا، وعرفوا فيمن أسلم مثل ذلك، ثم عرض عليهم الإسلام وعرفوا - على الأقل - أنه يمكن أن يكون حقا، وأنه إن كان حقا ولم يتبعوه تعرضوا للمضار الدنيوية وللخسران الأبدي في الآخرة، فلزمهم في هذه الحال أن يُسلموا؛ لأنه إن كان الأمر كما بدا لهم من صحة الإسلام فقد أخذوا منه بنصيب، وإلا فتركهم لما كانوا عليه لا يضرهم كما لا يتضرر من خالفهم، [٢/ ٢٠١] فلم يمنعهم من الإسلام إلا اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فُصِّلَت:٢٦].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٢﴾ [فُصِّلَت:٥٢].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الأَحۡقَاف:١٠].

وتكذيبهم للحق وإعراضهم عنه -بعد أن قامت الحجة عليهم بأن تصديقه واتباعه أحوط لهم وأقرب إلى النجاة - ظلم شديد منهم، استحقوا به ألا يهديهم الله ﷻ إلى استيقان أنه حق، وهذا كما تقدم في قصة نوح، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأَعۡرَاف:١٠١]، ونحوها في

سورة يونس [٧٤] وفيها: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

وقال الله ﷻ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأَنْعَام:١٠٩-١١٠].

و في «تفسير ابن جرير» (٧/ ١٩٤)[١]: «.... عن ابن عباس رضي الله عنهما: قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ...﴾ قال: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء، ورُدَّتْ عن كل أمر»، وهذا هو الصحيح، الكاف في قوله: «كما» للتعليل.

وكذلك هي في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البَقَرَة:١٩٨].

قال ابن جرير رحمه الله في «تفسيره» (٢/ ١٦٣)[٢]: «يعني بذلك جل ثناؤه: واذكروا الله أيها المؤمنون عند المشعر الحرام بالثناء عليه والشكر له على أياديه عندكم، وليكن ذكركم له بالخضوع له والشكر على ما أنعم عليكم من التوفيق».

وهو الظاهر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البَقَرَة:٢٣٩].

---

(١) ط دار هجر، ٩/ ٤٩٠.
(٢) ٣/ ٥٢٣ - ٥٢٤.

[٢/ ٢٠٢] قال ابن جرير ﵀ (٣/ ٣٣٧)[(١)]: «... فاذكروا الله في صلاتكم و في غيرها بالشكر له والحمد والثناء عليه، على ما أنعم به عليكم من التوفيق لإصابة الحق الذي ضل عنه أعداؤكم».

وقد ذكر ابن هشام ﵀ في «المغني»[(٢)] هذا المعنى للكاف، فراجعه.

وفي «الإتقان»[(٣)]: «الكاف حرف جرّ له معان أشهرها التشبيه.... والتعليل نحو: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ﴾ [البَقَرَةِ:١٥١]، قال الأخفش: أي لأجل إرسالنا فيكم رسولًا منكم فاذكروني، ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البَقَرَةِ:١٩٨]، أي لأجل هدايته إياكم.....».

---

(١) ٤/ ٣٩٥.

(٢) ١/ ١٩٢.

(٣) مجمع الملك فهد، ٣/ ١١٣٦.

التعليق

❑ الاحتياط في مخالفة ما نشأ عليه:

مبنى الشريعة على الاحتياط والتحرز مما عسى أن يكون طريقا إلى مفسدة[١].

وقد عرف الجرجاني رحمه الله الاحتياط بأنه «حفظ النفس عن الوقوع في المآثم»[٢].

وعرفه الفيومي رحمه الله بأنه «فعل ما هو أجمع لأصول الأحكام وأبعد عن شوائب التأويلات»[٣].

وقال ابن تيمية رحمه الله عن الاحتياط: «اتقاء من يخاف أن يكون سببا للذم والعذاب عند عدم المعارض الراجح»[٤].

يجب على الفرد أن يتحلى بالاحتياط عند مواجهته للأمور التي نشأ عليها وقد يتعارض فيها مع ما أتى به العلم الشرعي. إذا وجد الفرد أن ما نشأ عليه قد يعتبره البعض مخالفاً للشريعة أو حتى بدعة أو حرامًا، فعليه أن يتوخى الحذر ويبتعد عن هذه الممارسات حتى يتأكد من صحتها بمراجعة الأدلة الشرعية الواضحة.

---

(١) انظر: الموافقات، ٢/ ٢٠١.

(٢) التعريفات، الجرجاني، ص١٢.

(٣) المصباح المنير، الفيومي، ص١٠.

(٤) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٥م، ٢٠/ ١٣٨.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ...﴾[الحُجُرَات:١٢]، فهذا أمر باجتناب بعض ما ليس بإثم خشية من الوقوع فيما هو إثم، وذلك هو الاحتياط، قال السبكي معقبا، وهو استنباط جيد(١).

ومن الأمثلة على ذلك احتياط النبي في درء مفسدة الوصول إلى الربا عن طريق بعض أنواع البيوع فقد نهى أن يجمع الرجل بين سلف وبيع، ومعلوم أنه لو أفرد أحدهما عن الآخر صح، وإنما كان الاحتياط في تحريم هذا النوع من البيوع لأن اقتران أحد العقدين بالآخر وسيلة للوصول إلى الربا، ونص حديث النبي في النهي: «لا يحل سلف وبيع، وَلَا شَرْطَان في بيع، وَلَا رِبْح مَا لَمْ يُضْمَنْ، وَلَا بَيْعُ مَا ليس عندك»(٢).

أمر النبي ﷺ من صلى في رحله ثم حضر المسجد أن يصلي مع الناس، إنما كان احتياطا منه في دفع التهمة وإساءة الظن التي يمكن أن تحدث بسبب عدم صلاته مع الناس في المسجد، وهو احتياط مندوب.

وفي ذلك روى سعيد بن السائب عن نوح بن صعصعة عن يزيد بن عامر رضي الله عنه قال: جئتُ والنَّبي في الصلاة فَجَلَسْتُ وَلم أدخل مَعَهُمْ فِي الصَّلَاةِ، قَالَ: فَانْصَرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَأَى يَزِيدَ جَالِسًا فَقَالَ: أَلَمْ تُسْلِمْ يا يَزِيدُ؟ قَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَسْلَمْتُ، قَالَ: فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَدْخُلَ مَعَ النَّاسِ في

(١) الأشباه والنظائر، السبكي، ١/ ١١٠.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في كراهية بيع ما ليس عندك رقم ١١٥٥ واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح.

صَلَاتِهِمْ ؟ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ قَدْ صَلَّيْتُ في مَنْزِلِي، وَأَنَا أَحْسَبُ أَنْ قَدْ صَلَّيْتُمْ، فَقَالَ: إِذَا جِئْتَ إِلَى الصَّلَاةَ فَوَجَدْتَ النَّاسُ فَصَلِّ مَعَهُمْ، وَإِنْ كُنْتَ قَدْ صَلَّيْتَ تكُن لك نافلة، وَهَذَه مَكْتُوبَةٌ»[١]، وهو محمول على من صلى منفرداً ثم التقى بجماعة يصلون.

ودليل الاحتياط الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي عن الحسن بن علي رضي الله عنه، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة[٢].

فالاحتياط هنا يعني أن الشخص يجب أن يكون حذرًا ويتحقق من صحة الممارسات والعقائد التي تربى عليها، خصوصًا إذا وجد تناقضًا بينها وبين تعاليم الدين الصحيحة، فعلى سبيل المثال، إذا نشأ الفرد على معتقدات أو عادات تتعارض مع ما ثبت من أحكام الشريعة، يجب عليه أن يتريث ويتحقق من صحة ما نشأ عليه، وأن يأخذ نفسه بترك تلك الممارسات حتى يتبين له بالحجج الواضحة صحة ما نشأ عليه، هذا الاحتياط يساعد الفرد على تفادي الوقوع في الخطأ، ويعزز من التزامه بما يرضي الله تعالى.

- عن عامر الشعبي رحمه الله قال: سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب فيمن صلى في منزله ثم أدرك الجماعة يصلي معهم، رقم ٤٨٩ واللفظ له، وأخرجه النسائي: كتاب الإمامة. باب إعادة الصلاة مع الجماعة بعد صلاة الرجل.. رقم ٨٤٨

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، برقم (٢٥١٨)، وقال: وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، ٤/ ٢٤٩.

لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفا عن الوقوع فيه، والمحارم كذلك يعاقب الله على ارتكابها، فمن احتاط لنفسه لا يقاربها بالوقوع في الشبهات (يوشك)، أي: يقرب لأن يتعاهد به التساهل ويتمرن عليه ويجسر على شبهة أخرى أغلظ منها وهكذا حتى يقع في الحرام(٢).

وقال الخطابي رحمه الله: هذا الحديث أصل في الورع وفيما يلزم الإنسان اجتنابه من الشبهة والريب(٣).

❑ نصح الآخرين:

كما ينبغي أن يكون هذا الاحتياط شاملًا لنصحه للآخرين في حال كانوا في نفس الموقف، لأن ذلك يعكس حرصه على تحقيق الصواب والابتعاد عن الشبهات، وإذا وجد الإنسان نفسه متردداً أو مقاومًا لهذا التغيير، فهذا قد يكون مؤشرًا على سيطرة الهوى على النفس، مما يتطلب جهدًا مضاعفًا لتصحيح المسار ومواجهة الهوى.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث ٥٢، ١/ ٢٠.

(٢) كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، محمد بن عبد الهادي التتوي أبو الحسن نور الدين السندي، دار الجيل، بيروت، ٢/ ٤٧٧.

(٣) معالم السنن، الخطابي، المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٩٣٢م، ٣/ ٥٦.

قال الإمام الراغب الأصفهاني ﵀ تعالى «النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه»[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأَعْرَاف:٧٩].

– وقال الإمام الخطابي ﵀: النَّصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له قال ويقال هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وأنه ليس في كلام العرب كلمة مفردة تُستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة[٢].

والنصيحة من حق المسلم على أخيه المسلم من ما أخرجه الإمام مسلم بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ قِيلَ ما هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَال إِذا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عليه وإذا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ وَإِذا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ له وإِذا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ وإِذا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»[٣].

قال ابن بطال ﵀: «ولا يكون ناصحا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم إلا من بدأ بالنصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه، ليعرف به ما يجب عليه، ويعلم عداوة الشيطان له وكيف الحذر منه ويعلم قبيح ما

(١) المفردات، ص٤٩٤.
(٢) شرح النووي على مسلم، ٢/ ٣٧.
(٣) صحيح مسلم، باب من حقِّ الْمُسلِمِ لِلْمُسْلِمِ رَدُّ السَّلام، حديث (٢١٦٢)، ٤/ ١٧٠٥؛ الأدب المفرد، ١/ ٣٤٣.

تميل إليه النفس حتى يخالفها بعلم»[١].

وينبغي أن يكون الاحتياط والحرص على الصواب شاملين لنصيحة الآخرين الذين قد يكونون في نفس الموقف، فالنصح للغير في مثل هذه الحالات يعكس حرص الإنسان على تحري الحق والابتعاد عن الشبهات، وإذا شعر الإنسان بالتردد أو المقاومة في نصح غيره أو في الالتزام بالتغيير، فهذا قد يكون دليلاً على سيطرة الهوى على النفس. وهنا يتطلب الأمر مجاهدة إضافية لتصحيح المسار وتخليص النفس من تأثير الهوى، مما يعزز من التزام الحق ونشره بين الناس.

❑ ثبوت الحجة والاحتياط عند المكلف:

ينبغي على المكلف أن يدرك أن إثباته لكون ما يُدعى إليه أكثر احتياطاً مما هو عليه، كافٍ لإقامة الحجة عليه عند الله ﷻ، فالأشخاص الذين نشأوا على دين معين كانوا يرون أن الذين يتبعون دينًا آخر لا يختلفون عنهم بشكل واضح في حياتهم الدنيا. وقد لاحظوا أيضًا أن بعض الأشخاص الذين دخلوا في الإسلام كانوا يعيشون مثلهم من حيث الرفاهية أو النجاح في الدنيا. وعندما عرض عليهم الإسلام، أدركوا على الأقل أنه يمكن أن يكون دينًا صحيحًا، لذلك كان من الواجب عليهم أن يتحققوا من صحة الإسلام بجدية. فإذا كان الإسلام كما بدا لهم من صحة، فإن قبولهم له هو الوسيلة الأفضل لتفادي الخسائر الدنيوية والأخروية.

أما إذا كان الدين الجديد خاطئًا، فلن يكون هناك ضرر كبير في تركه

(١) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ١/ ١٣٠.

والتمسك بما كانوا عليه، طالما أن ذلك لم يؤثر عليهم كما لم يؤثر على من خالفهم.

❑ النتائج الوخيمة لتكذيب الحق وإعراضه:

عندما يُعرض الإنسان عن الحق ويتكبر عن قبوله رغم وضوح الحجة وقيامها عليه، فإنه بذلك يظلم نفسه ظلماً شديداً. الإعراض عن الحق بعدما تبين أنه أقرب للنجاة وأكثر أماناً هو رفض واضح للهداية واختيار متعمد للضلال، وهذا الظلم للنفس يؤدي إلى حرمانها من التوفيق، ويصبح الإنسان مستحقاً لأن يُطبع على قلبه فلا يصل إلى اليقين بأن الحق حق. إن إصرار الإنسان على اتباع الهوى وتجاهل ما هو أوضح وأحوط من الحق هو سبب لاستحقاقه العقوبة الإلهية والابتعاد عن الهداية.

يقسم ابن تيمية ﵀ الظلم إلى ثلاثة أنواع، فيقول: «الظلم ثلاثة أنواع: الظلم الذي لا شفاعة فيه وهو الشرك. وظلم الناس لبعضهم البعض وهذا الظلم لا بد فيه من إعطاء المظلوم حقه، ولا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها، ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة، والنوع الثالث من الظلم، هو ظلم الإنسان لنفسه ويدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الإطلاق، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢]»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٧/ ٨٧.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: « ظلم النفس إنما هو بالمعاصي، واتباعها شهواتها وإيثارها لها على طاعة ربها»(١)؛ ذلك أن النفس تلحقها العقوبات الربانية بسبب ارتكابها لتلك الذنوب والمعاصي؛ لهذا قال الإمام ابن الجوزي: «ذكر أهل التفسير أن الظلم في القرآن على ستة أوجه... ومنها الاضرار بالنفس، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هُود:١٠١](٢).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوا فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ونحو ذلك بخلاف ديوان الشرك فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد وديوان المظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها»(٣).

وتكذيب الحق وإعراض الكافرين عنه، بعد أن قامت عليهم الحجة بأن تصديقه واتّباعه هو الأجدر بالنجاة، يمثل ظلمًا عظيمًا. هذا الظلم يستوجب أن يطبع الله على قلوبهم ويعمي بصائرهم، فلا يهتدون إلى الحق رغم الدلائل الواضحة. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، ص ٢٩٤.

(٢) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ص ٤٢٨.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن قيم الجوزية، (١٩١) - (٧٥١)، ص٣٣

ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأَعۡرَاف:١٠١].

فالكفر بالله تعالى من أقبح الظلم الذي يُوقعه إنسان على نفسه؛ وذلك لما يجره على صاحبه من وبال وعذاب في الدنيا والآخرة، حيث تبدأ عاقبة الكافرين الظالمين لأنفسهم من اللحظات الأولى لخروجهم من دنياهم، فتتلقاهم ملائكة الموت بالعذاب والإهانة والضرب، وتستمر هذه العاقبة في قبورهم، وتنتهى عاقبته كفرهم بأن تكون نار جهنم مثواهم وبئس القرار، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه العاقبة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾ [النَّحل:٢٨-٢٩]، قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى عن حال الكافرين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم: ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ قال الله مكذبا لهم في قيلهم ذلك: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾ [النَّحل:٢٨-٢٩] أي: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبرا عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، ويأتي أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ

عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ [فَاطِر:٣٦][١].

التكذيب والإعراض ينتج عنه عدم الثبات على الحق وتغيير القلوب عن الإيمان، مما يجعلهم في ضلال دائم ويحول بينهم وبين الهداية.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ص٥٦٧.

١٠ التمييز بين الحجج والشبهات وأهميته في تحصيل الحق

النص

يسعى في التمييز بين معدن الحجج ومعدن الشبهات، فإنه إذا تم له ذلك هان عليه الخطب، فإنه لا يأتيه من معدن الحق إلا الحق، فلا يحتاج - إن كان راغبا في الحق قانعا به - إلى الإعراض عن شيء جاء من معدن الحق، ولا إلى أن يتعرض لشيء جاء من معدن الشبهات، لكن أهل الأهواء قد حاولوا التشبيه والتمويه، فالواجب على الراغب في الحق ألا ينظر إلى ما يجيئه من معدن الحق من وراء زجاجاتهم الملونة، بل ينظر إليه كما كان ينظر إليه أهل الحق. والله الموفق.

التعليق

❑ أهمية التمييز بين الحق والباطل:

الحق هو الأمر الثابت والصحيح الذي لا يمكن لعاقل إنكاره، بل يلزمه الإقرار به والاعتراف بصحته. يتميز الحق بوضوحه وجاذبيته لمن يبحث عنه بصدق، ويجعل من يتعداه ظالماً ومن يتجاهله نادماً. أما أتباع الحق، فهم أصحاب العقول الراجحة والأخلاق الفاضلة، ينقادون للحق عند معرفته وينبذون الباطل، في المقابل، الباطل هو ما لا يملك ثباتاً ولا يستحق البقاء، بل يجب تركه وإزالته، أتباع الباطل غالباً ما يكونون من أسافل الناس، يتكبرون عن الحق، ويتبعون الجهل. يحاولون تصوير الباطل في صورة الحق بزخرف القول والخداع، لكن فساد حججهم واضح لمن يمتلك بصيرة. لذلك، من المهم التفريق بين الحجج التي تنبع من مصادر الحق وبين الشبهات التي يسوقها أصحاب الباطل لتضليل الناس.

والشبهات هي تصورات ذهنية تثير الشك والارتياب حول الحق وتمنع الشخص من القناعة التامة به بسبب عدم وضوحه لديه، هذه الشبهات قد تكون صحيحة أو خاطئة، لكنها تمنع من رؤية الحق بوضوح أو تأخير قبوله، غالباً ما تنشأ هذه الشبهات من عوامل خارجية مثل التقاليد الموروثة، المصالح الشخصية، السلطة الدنيوية، أو العصبية الجاهلية، عندما ترتبط الشبهات بهذه العوامل، تؤثر بشكل قوي على النفوس الضعيفة، مما يجعلها تتشبث بتلك الشبهات وتحسبها دليلاً مقنعاً لرفض الحق أو التشكيك فيه.

يقول ابن القيم: «الشبهات ما توحيه شياطين الجن والإنس في معارضة الحق أنها تؤثر فساداً على القوة العلمية والنظرية ما لم يتم منعها وعلاجها»[(١)].

❑ مواجهة التشويه والتمويه من أهل الأهواء:

خلاصة القول في الهوى وأهل الأهواء، الهوى ما خرج عن موجب الكتاب والسنة فهو هوى مذموم، ويسمى صاحبه صاحب هوى.

فكل من لم يتبع العلم والحق فهو صاحب هوى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ١١٩﴾ [الأَنْعَام:١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القَصَص:٥٠] فالهوى ضد اتباع النص الشرعي من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدي الله الذي بعث به رسوله ﷺ»[(٢)].

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، الإمام شمس الدين محمد بن بكر بن القيم الجوزية، دار الغد الجديد للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م، ص ٥٢.

(٢) الاستقامة، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٤٠٩م، ٢/ ٢٢٤، ٢٢٥؛ مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، مكتبة ابن تيمية، ٣٥/ ٤١٤؛ انظر: الصواعق المرسلة، ابن القيم، تحقيق: علي بن محمد الدخيل، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ، ٣/ ١٠٤٤.

- وقال الشاطبي رحمه الله: «إن لفظ أهل الأهواء وعبارة أهل البدع إنما تطلق حقيقة على الذين ابتدعوها وقدموا فيها شريعة الهوى بالاستنباط، والنصر لها والاستدلال على صحتها في زعمهم حتى عد خلافهم خلافاً»[١].

فأهل الأهواء يحاولون دائماً إضفاء التشويه والتمويه على الحق باستخدام زجاجات ملونة تجعل الحق يبدو باطلاً والعكس صحيح.

- قال أبو قلابة رحمه الله: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا أمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم مما تعرفون»[٢].

- وعن الحسن وابن سيرين رحمهما الله أنهما قالا: «لا تجالسوا أصحاب الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم»[٣] وقالا: «لا تجالسوا أهل الأهواء، فإنكم إن لم تدخلوا فيما دخلوا فيه لبسوا عليكم ما تعرفون»[٤].

- وقال مجاهد رحمه الله: «ما أدري أي النعمتين على أعظم أن هداني للإسلام أو عافاني من هذه الأهواء»[٥].

لذلك، من الواجب على من يرغب في الحق أن ينظر إليه من خلال النظرة الصافية التي كان يتبناها أهل الحق السابقون، بعيداً عن التأثيرات المشوهة لأهل الباطل.

---

(١) الاعتصام، الشاطبي، تعريف: محمد رشيد رضا، ١/ ١٦٢- ١٦٣.

(٢) الابانة، ابن بطة، ٢/ ٤٣٥)، برقم ٣٦٣، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم ١٢٤٤؛ سنن الدارمي، باب اجتناب أهل الأهواء، ١/ ٩٠، برقم ٤٠٥، وقال المحقق: إسناده صحيح.

(٣) سنن الدارمي، باب اجتناب أهل الأهواء، ١/ ٩١، برقم ٤١٥، وقال المحقق: إسناده صحيح.

(٤) الإبانة، ابن بطة، ٢/ ٤٣٨، برقم٣٦٧.

(٥) سنن الدارمي، تحقيق حسين سليم، ١/ ١٠٣، برقم ٣٠٩، وقال المحقق: رجاله ثقات.

فأهل الأهواء يحاولون دائماً التشويه والتمويه على الحق بطرق ملتوية، سواء من خلال تحريف الحقائق أو تقديم الشبهات بصورة تبدو جذابة، لكن جوهرها زائف. لمواجهة هذا التشويه، يجب على الباحث عن الحق أن يتحلى بالتمييز بين مصادره النقية وبين ما يسعى أهل الأهواء إلى ترويجه، لا ينبغي أن ينظر الإنسان إلى الحق من خلال تصوراتهم المزيفة، بل يجب أن يراه كما هو، صافياً، كما كان ينظر إليه أهل الحق الثابتين، بالتسلح بالعلم والتثبت، يمكن مواجهة تلك المحاولات الباطلة ورفضها، لأن الحق ثابت وواضح لمن أراد الوصول إليه بصدق، والله هو الموفق في ذلك.

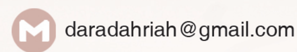
الفهرس

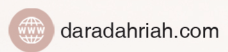
هذا الكتاب

هذا التوشيح اللطيف على عُلالة علم، وغُلالة فهم ساقني لها قدر الله، ودفعني لها حب المعرفة ومتابعة مسالك العلماء في تدبيرها، وحسن المأخذ فيها، فوقفت مشدوهًا لروعة ما رأيت من حسن المأخذ، وجمال الاستنطاق للنصوص، ودقة التعبير عن كوامن النفس، وبيان أبواب عللها، للتمكن من غلقها.. ورعايتها بروح الوحي الشريف، وأنا معني بمثل هذه اللطائف، لحاجتي لها، في تربية روحي خلال رحلة البحث عن الحق، في حكم من أحكام الله جل وعز ...

المؤلف




daradahriah@gmail.com


daradahriah.com


daradahriah